
1973
ARABIAN RESEARCH LIBRARY
قافلة الزيت
صفر ١٣٩٣/ مارس - ابريل ١٩٧٣
RECEIVED
ARABIAN RESEARCH LIBRARY
MAR 5 1973
Routing :

بسم الله الرحمن الرحيم

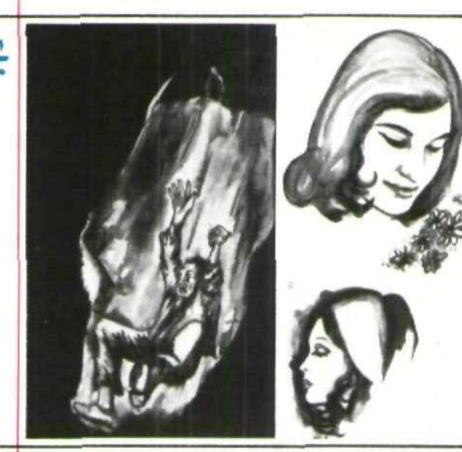
قافلة الزيت

العدد الثاني   المجلد الحادي والعشرون

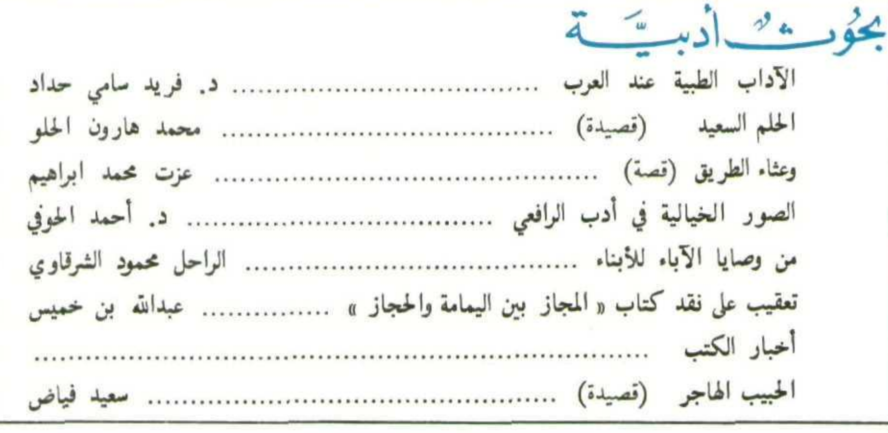
تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الأمريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجاناً

العنوان : صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد



بحوث أدبية



بحوث علمية

إستطلاعات مصورة





التعليق على صورة الغلاف



جانب من وحدة المزج في رأس تنورة حيث يتم مزج المنتجات البترولية بعد معالجتها وازالة المركبات الكبريتية منها ..

تصوير : برنت مودي

المدير العام : فيصل محمد البسام   المدير المسؤول : عبدالله صالح جمعة
رئيس التحرير : منصور مدني   المحرر المساعد : عوني ابو كشك

الآداب الطبية عند العرب

بقلم الدكتور فريد سامي حداد

الآداب الطبية مجموعة من القواعد المسلكية وضعها الأطباء ونقحوها وزادوا عليها على مرّ العصور ، حتى أصبحت نبراسا ينير سبيلهم في أعمالهم المهنية ، وتذكرهم دائما بمسؤولياتهم وواجباتهم نحو المريض ووجوب المحافظة على شرف مهنة الطب ، وتحثهم دائما على السمو الاخلاقي نحو أهداف جليلة سامية نبيلة جاعلين الخير العام هدفهم والضمير المتقد هداهم .

وضعت هذه القواعد الأخلاقية في أشكال مختلفة واتخذت على مر العصور والأزمان حللا متنوعة مثل « شرعة حمورابي » و « قسم أبقراط » ... الخ .. أما حديثا فقد وضعت النقابات وفي بعض البلدان الحكومات ، نصوصا قانونية تحافظ عليها وترعاها وتنفذ مضمونها مجالس تأديبية تابعة لنقابات الأطباء أو لهيئات أو منظمات مهنية مماثلة ، فتصدر القرارات التأديبية بحق المخالفين من الأطباء .

المصادر

ينبغي لمن أراد أن يدرس الآداب الطبية عند العرب وتاريخها أن يعتمد ثلاثة مصادر مهمة ترجع جميعها الى أطباء العرب أنفسهم . وأول هذه المصادر ، ما تركه أولئك الأطباء من مقالات وكتب في هذا الموضوع ، وثانيها ما تضمنته سيرهم من أخبار وأعمال تدل على مدى آدابهم . وثالثها ما قام به الأطباء يؤازرهم الخلفاء والأمراء والوزراء والحكام وغيرهم ، من تأسيس المصحات واجراء الجرايات الواسعة لها ، ووضع قوانين اجازات ممارسة مهنة الطب والفحوصات المؤدية لها ، والمباشرة بالأعمال الطبية الصحية الجليلة كافة التي تعكس مدى اهتمام المدنية العربية بالأخلاق عموما ، وبالآداب الطبية بنوع خاص .

تآليف الأطباء العرب في الآداب الطبية

كتب عدد من أطباء العرب في موضوع الآداب الطبية وألفوا فيه رسائل وكتبا عديدة نذكر منهم : « الكندي » ، و « يوحنا بن ماسويه » ، و « حنين بن اسحاق » ، و « الرهاوي » ، و « اسحق بن سليمان » ، و « علي بن سهل الطبري » ، و « الرازي » ، و « المجوسي » ، و « الزهراوي » ، و « ابن سينا » ، و « علي ابن رضوان » ، و « موسى بن ميمون القرطبي » و « عبد اللطيف البغدادي » ، وغيرهم .

فالرهاوي مثلا ، وهو من أطباء الرهى في القرن التاسع الميلادي ، ترك لنا كتابا في أدب الطبيب يقع في ٢٢٣ صفحة ، ويتضمن عشرين فصلا . كان الكتاب مفقودا حتى عثر مؤخرا على نسخة منه في المكتبة السليمية في « أدرنة » في تركيا ، فنشرت منه ترجمة انكليزية دون النص العربي .

يتطرق «الرهاوي» في كتابه هذا الى شتى نواحي أدب الطبيب ، فهو يبحث في الرأفة التي يجب أن يتحلى بهـا الطبيب والتفهم العميق لمآسي مرضـاه ، وفي أخـلاق الطبيب الحميدة والاعتدال ، وكبح الشهوات والارتداد عن ملذات الدنيا .

ويفرد فصلا كاملا يبحث في حرمة الطبيب والطب ، وفصلا ثانيا لشؤون بدن الطبيب من طهارة ونظافة وملبس وسلوك أمام عامة الناس . ثم يتناول ضرورة متابعة قراءة الكتب والاجتماع الى أهل العلم والاستفادة من أقوال الأطباء القدماء وتعاليم الدين . ويفرد فصلا للبحث في ضرورة تدوين مشاهدات الطبيب السريرية كأعراض المرض وعلامات الأمراض وتشخيصها وعلاجها . ويكتب عن ضرورة التخصص والاختصاص ووجوب الامتناع من معالجة الأمراض التي لا تدخل في حقل اختصاص الطبيب .

ويذكر «الرهاوي» في أمكنة كثيرة من كتابه أمثالا عن حوادث رآها أو وقعت له تدل على أنه كان طبيبا ممارسا ممتازا . وتراه يستشهد بأقوال الكثيرين من قدماء الأطباء كأبقراط ، وأرسطو ، وسقراط ، وجالينوس ، والكندي ، وحنين ابن اسحق ، وغيرهم . كما أنه كان يأتي على جميع جزئيات الآداب الطبية وتفاصيلها متوخيا في كل ذلك اظهار أهمية الأخلاق باعتبارها أساساً يبني عليه الطبيب مهنته .

أما علي بن سهل الطبري : (٧٧٥–٨٥٠م) معلم الرازي ، فيقول في كتابه « فردوس الحكمة » وهو من أول كتب الطب عند العرب :

« قد اجتمعت للأطباء خمس خصال لم يجتمعن لغيرهم ، أولها الاهتمام الدائم بما يرجون به ادخال الراحة على الناس كلهم ، والثانية معرفتهم أمراضا واسقاما غائبة عن أبصارهم ، والثالثة اقرار الملوك والسوقة بالحاجة اليهم ، والرابعة اتفاق الأمم كلها على تفضيل صناعتهم ، والخامسة الاسم المشتق من اسم الله لهم (١) . فعلى قدر الصناعة ورفع مرتبتها وعام منفعتها ينبغي أن تكون همم أهلها ، فانه لن يستحق أحد اسم الكمال فيها الا بأربع خصال هن : الرفق ، والقناعة ، والرحمة ، والعفاف . وأن يكون مع هذا أرق على المريض من أهله ، وأخف مؤونة عليه من نفسه . وأن يجعل همته في الفعل دون القول لأن زيادة الفعل على القول مكرمة ، وزيادة القول على الفعل منقصة ، ويكون حرصه على جميل الذكر والأجر لا على الاكتساب والجمع ، ويختار في كل شيء أفضله وأعدله ، ولا يكون قدما ولا مكثارا ولا خفيفا ولا مستثقلا ولا منتهكا ولا سهك البدن ولا مفرط الطيب ولا محقور اللباس ولا مشهورا ولا معجبا بنفسه مستطيلا على غيره محبا لسقطات أهل صناعته ، بل يستر زلاتهم ويحوطهم . فانه اذا فعل ذلك طاب ذكره وظهر فضله » .

(١) ربما يقصد «الطبري» بذلك اسمه تعالى «الحكيم»

وقال الطبري أيضا : « قد ينبغي للطبيب أن يكون فهما فطنا متأتيا لتهوين العلة وتقوية المريض ، فربما توهم الرجل العلة واعتل ويسمع من الطبيب ما يحب فيقوى ، ويسمع ما يكره فيزداد ضعفا » .

يقول عن لسان أطباء الهند: « قالوا ان الذي يصلح من التلامـــذة للطب من كان حسينا ذاهنا ، ويجب عليه أن يكون وقورا رحيما جوادا رقيق الأطراف صبورا على التعب ، تاركا للهوى والعجب والحسد والشره والكذب والغضب والنميمة والكسل نظيفا عفيفا رفيقا ، وأن يلهم نفسه الاقتدار على الأدب ، وأن يأتي على آخره ولا يمل ولا يضعف » .

وأما الرازي (٨٥٠ – ٩٣٢م) فكان طبيب العرب الأول كريما متفضلا ، بارا بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ، وكان يجل الطب اجلالا كبيرا كما يظهر من أكثر أقواله المأثورة : « على الطبيب أن يطمع في شفاء مريضه أكثر من رغبته في نيل أجوره ، وعليه أن يفضل معالجة الفقراء على معالجـــة الأغنياء » .

وأما علي بن عباس المجوسي (٩٩٤م) فقد أفاض في كتابه الشهير « كامل الصناعة الطبية » بضرورة المحافظة على شرف المهنة ، موصيا الطبيب بضرورة احترام أساتذته وأبناء أساتذته مقدما لهم جميع الواجبات ، مقدرا جهودهم في تهذيبه وتعليمه هذه المهنة الشريفة . كما أوصى الطبيب بضرورة المعالجة باخلاص ، وفي ذلك يقول : « ينبغي لمن أراد أن يكون طبيبا فاضلا عالما أن يقتدي بوصايا أبقراط الحكيم التي أوصى بها في عهده الى المتطببين وأن يجتهد في مداواة المرضى وحسن تدبيرهم . ولا يكون غرضه في مداواتهم طلب المال لكن الأجر والثواب . وأن لا يعطي لأحد دواء قتالا ولا يصفه له ولا يدل عليه ولا ينطق به . ولا يدفع الى النساء دواء لإسقاط الأجنة ولا يذكره لأحد » .

وقال : « ينبغي للطبيب أن يكون طاهرا ذكيا ديّنا مراقبا لله عز وجل رقيق اللسان محمود الطريقة متباعدا عن كل نجس ودنس وفجور » .

وقال : « ... ينبغي أن لا يفشي للمرضى سرا ولا يطلع عليه قريبا أو بعيدا فان كثيرا من المرضى يعرض لهم أمراض يكتمونها عن آبائهم وأهاليهم ويفشونها للطبيب .. ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما للبيمارستان ومواضع المرضى ، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الحذاق من الأطباء ، كثير التفقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، متذكرا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال ومما يدل عليه من الخير والشر ، فانه اذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغا حسنا ووثق بـه الناس ومالوا اليه ونال المحبة والكرامة منهم والذكر الجميل ، ولم يعدم مع ذلك المنفعة والفائدة من قبلهم » .

وأما علي بن رضوان (٩٩٨–١٠٦١م) ، وهو من أطباء مصر ، فقد ألف كتابا أسماه «شرف الطبيب» ، يقول فيه: «.. اجتهد في حال تصرفي في التواضع والمداواة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب واسعاف المحتاج ، واجعل قصدي في كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة .

وانفق من تحصيلي على منزلي ، فما فضل بعد ذلك كله صرفته في وجوه الجميل والمنافع مثل اعطاء الأهل والاخوان والجيران ، وألزم الصمت أكف اللسان عن معايب الناس واجتهد أن لا أتكلم الا بما ينبغي .

ومن عاملته ، عاملته يدا بيد لا أسلف ولا أتسلف .. ان طلب مني أحد سلفا وهبت منه ولم أرد منه عوضا » .

ثم يقول :

« الطبيب على رأي أبقراط هو الذي اجتمعت فيه سبع خصال ، وهي أن يكون :

- تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الروية عاقلا ذكورا خيّر الطبع .
- حسن الملبس طيب الرائحـــة ، نظيف البدن والثوب .
- كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشي من أمراضهم .
- رغبته في ابراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء .
- حريصا على التعليم والمبالغة في منافع الناس .
- سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شي من أمور النساء والأموال التي يشاهدها في منازل الأعلاء ، فضلا عن أن يتعرض الى شيء منها .
- مأمونا ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنة ، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

« ابن رضوان « نصا من « قسم أبقراط » ، وضعه هو وأدخل عليه بكثير من الحذق بعض الزيادات المهمة التي لا يتضمنها نص أبقراط الأصلي ، منها قوله : « ان على الطبيب أن يكون حسن الملبس وطيب الرائحة نظيف البدن والثوب ، وأن تكون رغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء ، وأن يكون حريصا على التعليم » .

ويسمو ابن رضوان الى أسمى مرتفعات الأخلاق ، حين يقول : « وأجعل قصدي من كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة » .

وأما عبد اللطيف البغدادي ، (١١٦٢ – ١٢٣١م) « وهو من الأطباء الذين طافوا أقطارا عديدة وتركوا لـنا كتابات مفيدة وممتعة ، فيقول :

« ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت الى منامك وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها ، وترتب في نفسك

ما تعمله في غدك من الحسنات وتسأل الله الاعانة على ذلك » .

ويقول أيضا : « لا تظن انك اذا حصلت علما فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمو ولا ينقص ، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر ، واشتغال المبتدىء بالتحفظ والتعلم ومباحثة الاقـــران ، واشتغال العالـم بالتعليم والتصنيف » .

وقال : « ينبغي للانسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم ، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم ».

وهكذا ، نرى عبد اللطيف « عصريا » في نظرته الى الطبيب وتصوره للطبيب الأمثل فانه يشدد على وجوب البناء على أسس متينة مستوحاة من الاختبارات السابقة ولكنه كذلك يعلق أهمية بالغة على الاستمرار في الدرس والاستزادة في المعرفة والمطالعة .

أخبار الأطباء العرب

تصور لنا بعض أخبار الأطباء العرب التي وصلت الينا عن طريق الكتب العربية التي تبحث في تاريخ الطب عند العرب وفي سير الأطباء العرب ، تصور لنا هذه الأخبار شخصية الطبيب العربي أجمل تصوير وتقربه الينا ، جاعلة منه رجلا فذا سامي الأخلاق رفيع الشأن حسن السلوك . ونقتصر في هذا البحث على عرض بعض الأمثلة عن هذه الأخبار .

فالرازي ، مثلا ، يقول عنه الطبيب المؤرخ « ابن أبي أصيبعة » : ..« انه كان كريما متفضلا بارا بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة » .

كما كان أمين الدولة ابن التلميذ (١٠٧١ – ١١٦٥م) ساعور المرستان العضدي في بغداد أيام المستضيء ، لا يقبل عطية الا من خليفة أو سلطان ، فعرض لبعض الملوك النائية داره مرض مزمن ، فقيل له : « ليس لك الا ابن التلميذ ، ولا يقصد أحدا ، فقال : « أنا أتوجـــه اليه » . فلما وصل ، أفرد لـه ولغلمانه دورا ، وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية ، ولبث مدة ، فبرىء الملك وتوجه الى بلاده ، وأرسل اليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة تخوت عتابي وأربعة مماليك وأربعة أفراس ، فامتنع من قبولها ، وقال : « ان علي يمينا أن لا أقبل من أحد شيئا » ، فقال التاجر : « هذا مقداره كثير . قال : « لما حلفت ما استثنيت » . وأقام شهرا يراوده ، ولا يزداد الا اباء . فقال لـه عند الوداع : « ها أنا أسافر ولا أرجع الى صاحبي ، وأتمتع بالمال ، فتتقلد منته وتفوتك منفعته ، ولا يعلم أحد بأنك رددته » . فقال : « ألست أعلم نفسي اني لم أقبله ، فنفسي تشرف بذلك ، علم الناس أو جهلوا » .

وكان رشيد الدين أبو حليقة (١١٩٤ –) وحيد زمانه ، انتقل من قلعة جعبر الى الرهى ، ومنها الى دمشق ثم الى القاهرة وخدم الكامل والصالح وترتشاه وبيبرس . ويحكى عنه انه : « كان رؤوفا بالمرضى محبا لفعل الخير » ، ويضيف ابن أبي أصيبعة قائلا :

« ورأيت من كانت مروءته ما يفوق الوصف ، ولم يزل دائم الاشتغال ملازما للفقراء .. ومـــن حكاياته أنه لما طال عليه عمل الترياق الفاروق تتعذر حضور أدويته الصحيحة من الآفاق عمل لرياقا مختصرا توجد أدويته في كل مكان ونوى أنه لا يقصد بـه طلب مال ولا جاه في الدنيا ولا يقصد به الا التقرب من الله لنفع خلقه أجمعين والشفقة على سائر العالمين ، وبذله للمرضى » .

وكان أبو الخير ابن الخمار (٩٤٢ –) طبيبا ماهرا وفيلسوفا مجيدا وناقلا خبيرا : « كان اذا دعاه من أظهر العبادة والزهد مشى اليه راجلا ، وقال له : جعلت هذا المشي كفارة لمروري الى أهل الفسق والجبارة . فاذا دعاه السلطان ركب اليه في زي الملوك والعظماء ، حتى انه ربما حجبه في هذه الحال ثلاثمائة غلام تركي بالخيول والجياد والهيئة البهية ، ووفى صناعته حقهـــا بالتواضع للضعفاء والتعاظم على العظماء » .

هذا ، وقد كان الأطباء العرب يعتزون بصناعة الطب ويحافظون عليها ويغارون عليها ولا يتركون فرصة دون الحفاظ على مستواها اللائق وعلى شرفها ، كما كان الطبيب العربي يحترم معلميه وأساتذته ويقدرهم حق قدرهم ويحتفي بهم كلما سنحت له الفرصة ، ويظهر ذلك جليا من حكاية جبرئيل بن بختيشوع مع هارون الرشيد حين نزل الرشيد على قرة منزل «جالينوس» ، فقال له جبرئيل : « يا أمير المؤمنين منزل أستاذي الأكبر مني على فرسخين ، فان رأى أمير المؤمنين أن يطلق لي الذهاب لزيارة مراسم الدار » . فقال الرشيد : « ويحك يا جبرئيل أتخوف أن يخرج جيش الروم فيختطفك » ، وأمر بأن يضم الى جبرئيل ألف فارس ، ثم وافاه بالخبز والمساليخ والملح حتى تمت لجبرئيل زيارة معالم دار جالينوس ، معلمه .

المؤثرات الأساسية

هنالك عوامل كثيرة ساعدت الأطباء العرب على الارتقاء بالآداب الطبية والسمو بها والتفوق فيها ، من أهمها معرفتهم بما تركه الأولون من آثار في هذا المضمار .

فقد نقل المترجمون الأولون علوم الهند الى العربية وتلقن الأطباء العرب ذلك وتفهموه ، ومثل ذلك ما أورده علي بن سهل الطبري فـــي « فردوس الحكمة » من أقوال الهنود في الآداب الطبية مما ذكرناه سابقا .

وكذلك مآثر اليونان ، وأخصها قسم أبقراط ، فقد ذكره الرهاوي ، وعلي بن عباس المجوسي ، وعلي بن رضوان ، وغيرهم كثيرون .

وكان دافع الأطباء العرب وحافزهم الكبير في سلوك السبيل القويم مستمدا من عدة معطيات ، أهمها :

• سيرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وسيرة عمر ، رضي الله عنه . فقد وقف عمر أرضا أصابها بخيبر وجعلها صدقة على الفقراء والمساكين لا تباع ولا توهب ولا تورث فكانت هذه أول صدقة موقوفة ، وأول مبادرة لانشاء حكم الوقف الذي ساعد كثيرا فيما بعد على التغلب على الفقر والفاقة وعلى تشجيع العلم والأبحاث العلمية . فلما كتب عمر صدقته هذه في خلافته دعا نفرا من المهاجرين والأنصار وأشهدهم عليها ، فانتشر خبر الصدقة وسار على هذا المنوال الكثيرون من المهاجرين والأنصار ، فصاروا يكتبون كتب وقفهم مصرحين فيها بأنها على سنة كتاب عمر .

• ما كتبه الفلاسفة العرب أمثال الفارابي وابن سينا . يقول الفارابي (٨٧٢ – ٩٥٠م) في الفصل الثالث والعشرين من كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » : « ان السعادة أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود الى حيث لا تحتاج في قوامها الى مادة . والسعادة هي الخير المطلوب بذاته ، وليس وراءها شيء آخر يمكن أن يناله الانسان أعظم منها . والأفعال الارادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة التي تصدر عن الفضائل » .

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الفارابي كان لا يتناول مما ينعم سيف الدولة عليه به سوى أربعة دراهم في اليوم ، يصرفها فيما يحتاجه من ضروري عيشه وانه كان لا يعتني بهيأة ولا منزل ولا مكسب . وكان مع ذلك عزيز النفس موفور الكرامة لا يخضع لارستقراطية المولد ولا يعبأ بأرستقراطية المال ، بل يضع فوقها أرستقراطية العلم .

وقد كان الفارابي فقير الحال زاهدا في الدنيا معرضا عن الجاه والمال حتى قيل انه كان ناطورا في بستان بدمشق وانه كان يسهر في الليل بغية المطالعة والتصنيف ويستضيء بقناديل الحراس .

أما ابن سينا فقد تأثر بآراء الفارابي ، وهو القائل : « قرأت كتاب (ما بعد الطبيعة) أربعين مرة ، ولم أفهمه وأيست من نفسي ، وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه حتى اشتريت كتابا لأبي نصر الفارابي وأسرعت في قراءته فانفتح علي هذا العلم وفرحت بذلك وتصدقت من ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى » .

فالسعادة عند ابن سينا هي في السمو عن الشهوات(٢) والاعراض عن الدنيا وعدم التفكير في أوهامها ، وفي اتباع الفضيلة والتجرد من المادة وشواغلها . وان السعادة القصوى لا تكون الا عن طريق العلم . واللذة عند ابن سينا هي في ادراك الأمور الروحانية والتقدم في العلوم والأبحاث العلمية ونسيان أمور الدنيا والأمور الغريزية .

لذا نرى أن مبدأ الخير للخير والابتعاد عن المادة والتواضع ولزوم الزهد والتعاون والاقتداء بالعلم ميزات تلقنها الأطباء العرب من كتب أساتذتهم أمثال الفارابي وابن سينا ، فأصبحت صفاتهم الملازمة لهم يقتدون بها في حياتهم المهنية متأثرين في ذلك تأثرا صالحا بآراء الفلاسفة العرب . ولنتذكر أن الكثير من الفلاسفة العرب كانوا أطباء أيضا ، وقد أثروا على المجتمع الذي عاشوا فيه عموما ، وأثروا على الأطباء خصوصا .

مآثر العرب في الآداب الطبية

لم يكتف الأطباء العرب باقتباس الآداب الطبية ممن سبقهم ، ولكنهم زادوا عليها مبادىء جديدة ساعدهم العصر الذي عاشوا وعملوا فيه على اظهارها ، وساهمت البيئة والمحيط والجو السليم الذي عاشوا فيه ، وسهل عليهم الارتفاع والرقي بالآداب الطبية الى مستوى لم تبلغه قبلهم .

ونورد هنا مثلا واحدا على ما زاده العرب على الآداب الطبية ، وهو مبدأ دفاع الطبيب عن زميله وعدم التعرض له ولأعماله . ولقد رأينا آنفا كيف أوضح الطبري هذا المبدأ الذي لم يذكره أبقراط في قسمه .

هذا قليل من كثير من مآثر العرب وما أسدوه من خدمات جليلة في مجالات الآداب الطبية . وهو مظهر من مظاهر التمدن العربي ومفخرة من مفاخره ■

فريد سامي حداد – بيروت

مراجع البحث :

• ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء مطبعة الوهيبية ١٨٨٢م
• الرهاوي : كتاب أدب الطبيب (ترجمة لافي — Levey) الانكليزية ، مطبعة AMer. Phil Sec فيلادلفيا ١٩٦٧م .
• صليبا ، جميل : ابن سينا ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٩٣٧م .
• صليبا ، جميل : من أفلاطون الى ابن سينا (الطبعة الثانية) ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٩٣٨م ص ٤٣ و ٤٤ .
• الطبري ، علي بن سهل : فردوس الحكمة ، مطبعة أفتاب برلين ١٩٢٨م .
• العقاد ، عباس محمود : الفارابي ، مطبعة دار المعارف الاسلامية القاهرة ١٩٤٤ .
• الفارابي ، أبو النصر : آراء أهل المدينة الفاضلة تحقيق البير نادر المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٩م.
• المجوسي ، علي بن عباس : كامل الصناعة الطبية مخطوط في مكتبة الدكتور سامي حداد مستشفى الشرق ، بيروت .
• يكن ، زهدي : احكام الوقف ، المكتبة العصرية صيدا .
• Encyclopedie de l'Islam "Wakf" T. IV. P. II54 Leyde 1934,

٢) راجع « رسالة الطير »

الحُلم السَعيد

للشاعر محمد هارون الحلو

أشرقَ الصّبحُ بنورِ الله فينا
يغمُرُ القلبَ رشادا ، ويقينا
فاشهدِ الرّوْضَ ، وقد زاد فتونا
واسمعِ اللّحنَ ، وقد فاضَ شُجونا
انّه الحبّ حياةُ العاشقينا

* * *

قمْ ترنّم بنشيدِ العنْدليبِ
بينَ أحلامٍ ، وفرْدوسٍ ، وطيبِ
ونسيمٍ باردٍ عذبٍ ، رطيبِ
وأهازيجٍ ، ولحنٍ ، ونسيبِ
في ربيعٍ باسمٍ طلقٍ طروبِ

* * *

واشْدُ بالفرحةِ في اليوم الجديدِ
واشْهَدِ البَسْمَةَ في ثغْرِ الوُرودِ
يرشُفُ القلبُ بها عِطرَ الوجودِ
وهو بالبَهْجةِ موصولُ النشيدِ
إنّما أنتَ على حلمٍ سعيدِ

* * *

أشدُ بالفرْحَةِ ، فالبلبلُ غنّى
طالما هيّجَهُ شوقٌ فأنّا
وهو في عودِ أراكٍ قدْ تثنّى
أيّ وجدٍ بينَ جنْبيه استكنّا ؟
وهو منه شاردُ اللّبِ معنّى

* * *

آه يا نفسي ، ونفسي تشرئِبّ
لم يزلْ في القلبِ اعلاقٌ وحبّ
وتباريحٌ ، ونارٌ ليس تخبو
ان ينبوعَ الهوى صفوٌ ، وعذبُ
وبه يحيا فؤادي ، وهو صبّ

* * *

لستُ أنْسى ما مضَى منِ ذكرياتِ
آنسَتْ روحي بفيضِ الصّبَواتِ
كيف أنْسى ، وهي فردوسُ حياتي ؟
وهي إشْراقُ كِياني ، وهْيَ ذاتي
ليتَ ماضينَا الذي ولّى يُواتي

* * *

فمتاعُ النفسِ في عيشٍ طليقِ
وحياةٍ رحبةٍ منْ كلِّ ضيقِ
لا تسلْني عنّ صُباباتِ العبيقِ
وغزالٍ ناعمِ الخدِّ رشيقِ
هو لي خيرُ أنيسٍ ، ورفيقِ

* * *

طالما همْتُ بفردوسِ الجمالْ
وهَوَى ظبيٍ غريرٍ ذي اختيالْ
لا تسلْ عنه ، وقد اشجَى خيالي
وهو في روعةِ حُسنٍ ، ودلالْ
لا أباليه ، وما منّي يبالي !



محمد هارون الحلو — القاهرة



صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز ، رئيس جمعية البر ، يترأس أحد اجتماعات مجلس ادارة الجمعية لمناقشة مشاريعها المقبلة .

دور للبر والخير

قيض الله للجزيرة العربية أن تشهد مولد الرسالة المحمدية السمحاء ، التي غمر ضياؤها الهادي أرجاء المعمورة ، فأرست بذلك للإنسانية جمعاء قواعد السلوك والأخلاق . ولا غرو إذن أن تظهر في المملكة ، التي احتضنت رسالة الخير ، جمعيات خيرية تدعو إلى البر وتحث على التعاطف والتراحم والإخاء .

استعرضنا في عدد سابق(١) عددا من الجمعيات الخيرية في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ، وها نحن اليوم نعود لنتناول عددا آخر منها في مناطق أخرى استكمالا لما بدأناه .

يرعى الجمعيات الخيرية في أنحاء المملكة كافة جهاز يدعى « المديرية العامة للرعاية الاجتماعية » ، وهو يرتبط مباشرة بوزارة العمل والشئون الاجتماعية ومنوط به تنفيذ نشاطاتها فيما يتعلق بخدمات الرعاية الاجتماعية في ربوع المملكة . ويرأس هذا الجهاز صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز ، الذي عبر عن رأيه في الجمعيات الخيرية ونشاطاتها فقال : « انه لمما يثلج الصدر أن نجد مثل هذه الجمعيات الأهلية التي تساهم في تقديم الخدمات الاجتماعية لأبناء الوطن وتسهم في رفع وتحسين المستوى المعيشي لمئات الأسر الفقيرة . وانني أؤمن بأن الرعاية الاجتماعية واجب قومي يتقاسم عبأه الدولة والمواطن للنهوض بالمجتمعات المحلية ومساعدتها . ومن هنا فان دور الجمعيات ، من خلال هذا المفهوم ، هو التنسيق مع أجهزة الدولة المعنية والتنويع في مجالات الخدمة والرعاية ليعم الخير والعطاء . والدولة من جانبها تشجع دائما قيام جمعيات جديدة في أنحاء المملكة كافة ، وتدعم الجمعيات الخيرية القائمة بالاعانات السنوية والخبرات الفنية .

جمعية البر بالرياض

في الطرف الجنوبي من شارع الملك عبد العزيز الصاخب بالحركة تقف عمارة شاهقة تطل على « ميدان ساحة العدل » ، وعلى شرفة الدور الثالث منها تتربع لوحة كبيرة كتب عليها « جمعية البر بالرياض » . ودخلت مقر الجمعية فألفيتها كخلية نحل ، اذ كانت اللجنة المالية والادارية المنبثقة عن مجلس ادارة الجمعية منهمكة في صرف الاعانات النقدية لعدد من الأسر الفقيرة .

وقصة نشأة هذه الجمعية تعود الى عام ١٣٧٤هـ ، عندما قام صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز ، أمير منطقة الرياض ، ونخبة من أهل الخير ، بدافع تحسسهم لآلام البائسين والمحتاجين ، بتأسيس « صندوق البر الخيري » بالرياض ليؤدي تجاه هذه الفئة من الناس الجديرة بالعناية والرعاية ، واجبا انسانيا يخفف مما تعانيه . وقد اقتصر نشاط الصندوق آنذاك على تقديم مساعدات نقدية شهرية للأسر المحتاجة ، بلغ عددها في نهاية عام ١٣٨٢هـ حوالي (٣٠٠) أسرة ، هذا بالاضافة الى الاعانات التي كان الصندوق يقدمها مرة واحدة لمن تعرضوا للكوارث أو النكبات والحالات المرضية . وجدير بالذكر أن القائمين على الصندوق ، حرصا منهم على تقديم المساعدة لمستحقيها ، كانوا يتبعون طريقة البحث والاستقصاء الميدانية ليقفوا على حالات الأسر المعوزة ، وليتأكدوا من مدى استحقاقها وعدد أفرادها وحالتها الاجتماعية .

استمر الصندوق على تأدية رسالته حتى عام ١٣٨٢هـ ، عندما صدر مرسوم ملكي يقضي باقامة نظام الضمان الاجتماعي الذي يكفل للمعوزين والأيتام والعجزة حقوقهم التي نص عليها القرآن الكريم . ونتيجة لذلك أدرجت كثير من الأسر التي كان الصندوق يمدها بالعون المادي ضمن قوائم « مؤسسة الضمان الاجتماعي » مما أدى الى انخفاض موارد الصندوق وتقلص حجم التبرعات ، الأمر الذي حمل القائمين عليه الى تجميد نشاطاته الى حين .

وفي مطلع عام ١٣٩٢هـ، هبّ صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز مع نخبة من رجال الدين والعلم والمال والأعمال لإحياء « صندوق البر » ، ولكن على نحو تتمشى



بسمة الحياة وبهجتها تنعكس على وجه هذه الطفلة البريئة في دار الحضانة التابعة « لجمعية النهضة النسائية الخيرية » بالرياض .

أغراضه وأهدافه مع المفاهيم الحديثة للرعاية الاجتماعية ، بحيث لا يقتصر نشاطه على المساعدات المادية للفقراء ، بل يتجاوزها الى نشاطات أخرى في حقل الخدمة الاجتماعية . فكان ان تأسست « جمعية البر » برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز ، وتم تكوين مجلس ادارة لها يتألف من فضيلة الشيخ ابراهيم بن محمد آل الشيخ ، والشيخ عبد العزيز يوسف السالم ، والشيخ محمد الجميح ، والدكتور عبد العزيز الخويطر ، والشيخ عبد العزيز المسند ، والشيخ محمد بن صالح بن سلطان ، والشيخ عبد الله بن خميس ، والدكتور عبد الله الوهيبي ، والشيخ عبد العزيز المقيرن ، والدكتور غازي القصيبي . كما شكلت لجنة تنفيذية برئاسة الأمير سلمان ابن عبد العزيز وعضوية كل من الدكتور عبد الله الوهيبي ، والدكتور غازي القصيبي ، والشيخ عبد العزيز المقيرن ، والشيخ عبد العزيز يوسف السالم . ووافقت وزارة العمل والشئون الاجتماعية على تأسيس الجمعية ، وتم تسجيلها ضمن الجمعيات الخيرية اعتبارا من مطلع عام ١٣٩٢هـ . ومنذ ذلك الحين راح مجلس ادارة الجمعية يرسم أهدافها ويحدد أغراضها ، فعقد عدة اجتماعات تمهيدية تقرر خلالها نظام الجمعية الأساسي وتأليف لجان خاصة تتولى كل واحدة منها نشاطا معينا .

هذا وتقوم الجمعية ، باجراء دراسات دقيقة مبنية على أسس سليمة يتقرر على ضوئها عدد الأسر المستحقة للمساعدة عملا بالآية الكريمة **« للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » .**

وفي شهر رمضان المبارك ١٣٩٢هـ ، قامت الجمعية بمزاولة باكورة نشاطاتها الخيرية حيث قدمت مساعدات مادية فورية لـ ٦٥٠ أسرة .

ومن بين المشاريع الحيوية التي تتطلع الجمعية الى تنفيذها في مجال الخدمات الاجتماعية ، انشاء مؤسسات خيرية تقوم على خدمة الفقراء ورعاية الأيتام والمسنين ، كتأسيس المستشفيات والمدارس والمساجد واقامة دور للحضانة والاسعاف في حدود امكانات الجمعية . ولدى سؤالي صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز عن توقعاته فيما يتعلق بتلك المشاريع الخيرية وأي منها سيعطى الأولوية في التنفيذ، قال : « انني وزملائي أعضاء مجلس الادارة مهتمون

(١) عدد ذي الحجة ١٣٩٢



أطفال « جمعية النهضة النسائية الخيرية » بالرياض يمرحون بين الزهور .

بتنفيذ الأهداف التي نص عليها في المادة الثانية من النظام الأساسي للجمعية نفسها ، غير أن تحديد ذلك بزمن معين يتوقف على توفر المبالغ الكافية التي تعتبر الركيزة الأساسية لتنفيذ أي مشروع . يلي ذلك انشاء دار يطلق عليها « دار البر » لرعاية الايتام والأطفال والشيوخ المسنين الذين فقدوا معيليهم لنتمكن بذلك من تهيئة الجو الملائم لإدخال البهجة والسرور على نفوسهم . ويأتي بالدرجة الثالثة تأسيس مستشفى نموذجي صغير يستوعب نحو خمسين سريرا يخصص جزء منها لرعاية الفقراء ومعالجتهم ، والجزء الآخر لأغراض تجارية تدر على الجمعية دخلا معقولا . وأود أن أشير الى نقطة مهمة أعتبرها المنطلق الأساسي الذي شجعني وزملائي على الاستمرار في متابعة الأعمال الخيرية والاهتمام بتنفيذ المشاريع المتعلقة بها وهي اقبال المواطنين على مختلف طبقاتهم على مؤازرة هذه الجمعية وتشجيعها ، ويتمثل ذلك في التبرعات السخية التي تلقتها الجمعية منهم ، مما أدى الى توفر حصيلة نقدية لا بأس بها خلال فترة وجيزة تقدر بشهر ونصف الشهر ، بلغت فيها الواردات ما يقارب السبعمائة ألف ريال » .

جمعية النهضة النسائية الخيرية

في منطقة « السليمانية » احدى ضواحي العاصمة ، وفي بقعة هادئة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، يقوم مبنى جميل تحيط به حديقة منسقة ، يحتضن « جمعية النهضة النسائية الخيرية » .

وتعتبر هذه الجمعية النسوية من أدوات الخير الرائدة في مدينة الرياض ، ويعود تاريخ تأسيسها الى شهر رجب من عام ١٣٨٢هـ ، عندما قامت سمو الأميرة « سارة الفيصل » رئيسة الجمعية ، توازرها سمو الأميرة لطيفة الفيصل والسيدة مظفر رفعت والسيدة سميرة خاشقجي ، بتكوين جمعية تسهم اسهاما مباشرا في تقديم خدمات اجتماعية متنوعة في محيط الأسرة ، رائدهن في ذلك رفع مستوى المرأة السعودية دينيا وثقافيا وصحيا واجتماعيا واقتصاديا عن طريق تنظيم برامج معينة ذات أهداف واضحة . وقد لاقت الجمعية منذ انشائها تأييدا ملموسا على الصعيدين الرسمي والأهلي ، ولم تلبث بعد أن أثبتت فعاليتها في نطاق الخدمة الاجتماعية ، أن تم تسجيلها رسميا في أواخر شهر ربيع الأول ١٣٨٣هـ . ومن أهم مشاريعها انشاء دار للحضانة ، وافتتاح فصول لمكافحة الأمية وتعليم التدبير المنزلي واللغات والضرب على الآلات الكاتبة .

دار الحضانة

لعل من أبرز المشروعات الانسانية التي ترعاها جمعية النهضة النسائية الخيرية في الرياض هو دار الحضانة . ففي هذه الدار يجد الطفل البريء الذي حرم من العطف والرعاية ما يعوض حنان الأم ويعيد اليه بسمة الحياة وبهجتها . نظرا لما تهيئه القائمات على الدار من جو لطيف مرح ، يغدقن فيه على الطفل ألوان الحب والعطف ، ويوفرن له كل أسباب اللهو والتسلية . وتضم الدار حاليا ثلاثين طفلا وطفلة تتراوح أعمارهم بين خمسة شهور وخمس سنوات . ويتم قبول الطفل في هذه الدار بعد اجراء بحث اجتماعي واستقصاء دقيق لحالة أسرته ، وذلك بالتعاون مع الاخصائيات الاجتماعيات لدى الوزارة ، حتى تثبت حاجة الطفل الى الحضانة . وخلال اقامة الطفل في الدار تقدم له الجمعية الكساء والغذاء والعناية الصحية . وقد خصص للأطفال جناح منفصل هادىء يضم قاعة للألعاب وصالة للطعام ، وغرفا للنوم ، ومرافق أخرى

يقضي بعض أطفال جمعية النهضة النسائية الخيرية بالرياض ، أوقاتا ممتعة مع وسائل اللهو واللعب المتنوعة .

وهو مزود بقطع من الأثاث الذي يتناسب مع أعمار الأطفال ، والأدوات المنزلية ، ووسائل التسلية المنوعة . ويعمل في الدار ثلاث مربيات متخصصات وطاه وعدد من المستخدمين . هذا وتعمل في الدار بصفة دائمة ممرضة منتدبة من وزارة الصحة للاشراف على النواحي الصحية في الدار . وعلاوة على ذلك تقوم أخصائية اجتماعية من وزارة العمل ببحث ودراسة الحالات الاجتماعية التي تعرض على الجمعية مع مديرة الجمعية ومجلس ادارتها ، كما تضطلع بتتبع حالات أولياء أمور الأطفال من الناحيـة الاجتماعية والاقتصادية .

أما بالنسبة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين أربع وخمس سنوات فتقوم الجمعية بارسالهم الى احدى رياض الأطفال في الرياض على نفقة رئيسة الجمعية ، ويبلغ عددهم حاليا ستة أطفال . واذا ما أتم الطفل عامه السادس في دار الحضانة تحوله الجمعية الى احدى دور التربية الاجتماعية التابعة لوزارة العمل .

ومن بين البرامج الترفيهية للأطفال ، تنظم الجمعية لهم رحلات أسبوعية لزيارة معالم الرياض وضواحيها وبساتينها ، كما تعرض عليهم بعض


معاني الحب والعطف والحنان توفرها « جمعية النهضة النسائية الخيرية» للأطفال الرضع .



الأفلام الترفيهية التي تتناسب مع أعمارهم . هذا ويقوم بعض أعضاء الجمعية بدعوة الأطفال الى منازلهم ضمن خطة ترمي الى اشعارهم بأنهم جزء من الأسرة ، وتقدم لهم الأسرة المضيفة خلال الزيارة الهدايا والألعاب والحلوى . وقد خصصت الجمعية يوم الخميس من كل أسبوع لزيارة أولياء أمور الأطفال دار الحضانة . وتقديرا من الوزارة للخدمات التي تقدمها الجمعية لهؤلاء الأطفال فانها خصصت لكل طفل مساعدة شهرية مقدارها ١٥٠ ريالا .

مكافحة الأمية

أولت جمعية النهضة النسائية الخيرية في الرياض منذ تأسيسها الناحية الثقافية اهتماما خاصا سيما وأن هناك نساء تقدم بهن العمر ولم تتح لهن فرص التعليم وأصبح من المتعذر عليهن الالتحاق بمدارس الدولة . فأقدمت الجمعية على فتح فصول مسائية لهن يتلقين فيها العلوم الدينية والقراءة والكتابة والحساب . وفي السنوات الأولى من بدء هذا المشروع كان عدد الملتحقات بفصول مكافحة الأمية يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ سيدة ، ثم أخذ العدد بالارتفاع حتى بلغ في بداية العام الدراسي الحالي ٥٦ ملتحقة تتراوح أعمارهن بين ٢٥ و ٥٠ سنة في ثلاثة فصول .

تعليم الطباعة على الآلة الكاتبة

بدأ برنامج تعليم الطباعة باللغتين العربية والانجليزية منذ أربع سنوات عندما لمست الجمعية حاجة بعض الفتيات والسيدات الى مزاولة عمل يرفع مستوى أسرهن الاقتصادي . فعمدت الجمعية الى تنظيم هذا البرنامج بالتنسيق مع معهد الادارة العامة بالرياض وفتح دورات تدريبية مدة كل منها أربعة شهور برسم شهري مقداره مائة ريال . وفي نهاية الدورة تخضع الملتحقة الى اختبار تشرف عليه وزارة العمل والشئون الاجتماعية وتمنح الناجحة شهادة تؤهلها للعمل في بعض أجهزة الدولة . وقد بلغ عدد المستفيدات من هذا البرنامج منذ بدئه حتى الآن نحو ٣٥ فتاة . وتضم الدورة الحالية ١١ ملتحقة .

تعليم الخياطة والتفصيل والتطريز

افتتحت الجمعية قسما خاصا بتعليم التدبير المنزلي في عام ١٣٨٨هـ ، حيث نظمت دورات تدريبية مسائية مدة كل منها تسعة شهور تدفع الملتحقة لقاء ذلك رسما مقداره ٤٥٠ ريالا . هذا وتعفي الجمعية من لا تساعدها حالتها المادية من دفع الرسوم . وقد بلغ عدد المستفيدات حتى ربيع الثاني ١٣٩٢هـ ٦١ مستفيدة . وتضم الدورة الحالية ٤٤ ملتحقة في فصلين . وتمنح الملتحقة بهذا البرنامج شهادة اثر اختبار عملي ونظري تحت اشراف وزارة العمل يخولها العمل في بعض أجهزة الدولة .

تعليم اللغة الانكليزية

أتاحت الجمعية لمن ترغب من السيدات في تعلم اللغة الانجليزية فرصة بفتحها فصول لهذا الغرض .

غير أن الملتحقة لم تكن تمنح شهادة بذلك . وفي بداية العام الدراسي الحالي رأت الجمعية أن تنظم هذه الدراسة بشكل يعود على الملتحقة

الوئام بين الأطفال في أوقات اللهو واللعب أمر تحرص على اشاعته القائمات على دار الحضانة .



بالفائدة المرجوة ، فقامت بالتعاون مع المجلس الثقافي البريطاني بدراسة الوضع ، وتمّ الاتفاق على فتح دورتين في السنة . وقد تقرر تدريس مناهج مجلس الثقافة البريطاني . ويبلغ عدد الملتحقات في الدورة الحالية ٥٤ ملتحقة في ثلاثة مستويات . وفي نهاية كل دورة تتقدم الملتحقة الى اختبار معد من قبل المجلس وتحت اشراف وزارة العمل .

ولا تقتصر خدمات الجمعية على النشاطات الآنفة الذكر ، بل تمتد خدماتها الى نواحي أخرى كتقديم معونة الشتاء ومعونة شهر رمضان من كساء وغذاء لبعض الأسر المحتاجة . والجمعية تعتمد في ايراداتها على اشتراكات أعضائها البالغ عددهن ٦٤ عضوا ، وعلى التبرعات ، والهبات واعانة الدولة ، والوصايا والأوقاف ، وحصيلة ايرادات نشاطاتها المختلفة . وقد بلغت ايرادات الجمعية في عام ١٣٩١/١٣٩٢هـ نحو ١٩٧ ألف ريال ، وبلغت مصروفاتها في العام ذاته حوالي ١٦٧ ألف ريال . وتقيم الجمعية في شهر ربيع الأول من كل عام معرضا يضم الأشغال اليدوية التي ينتجها الأعضاء كالمفارش والمطرزات لأنيقة والتابلوهات الحية والملبوسات الأنيقة . ويرصد ريع المعرض لصالح الجمعية .

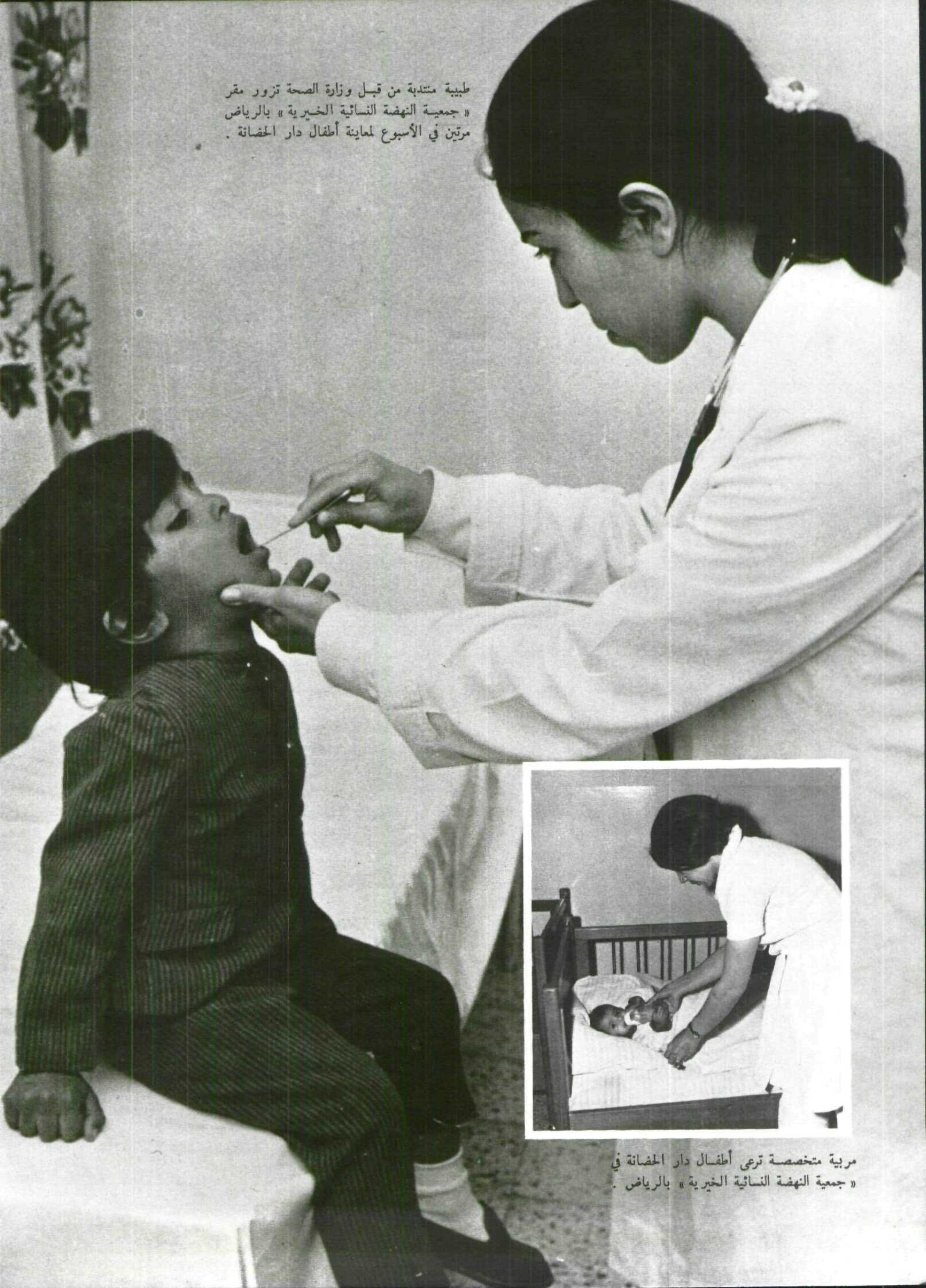
ومن المشاريع التي تنوي الجمعية تنفيذها في المستقبل القريب ، بناء قاعة للمحاضرات والندوات ، وافتتاح قسم حضانة يرعى أطفال الأمهات العاملات .

مناهل الخير في المنطقة الغربية

برزت الى حيز الوجود في بعض مدن هذه المنطقة جمعيات خيرية عديدة كان لخدماتها الجليلة الأثر الطيب في النفوس . ففي مدينة جدة التي تعج بالحركة وتغص بالسكان ظهرت في عام ١٣٨٣ « الجمعية النسائية الخيرية » ، وهي أول جمعية جرى تسجيلها رسميا لدى المديرية العامة للرعاية الاجتماعية . وقد كان لحرم جلالة الملك رئيسة الجمعية ، دور طليعي في تأسيس الجمعية ودعمها في مختلف المجالات ، حتى غدت الجمعية من أدوات الخير الفعالة في محيطها ، مما أكسبها ثقة الجمهور بها . وللجمعية مجلس ادارة مؤلف من ١٦ عضوا يتولى تصريف أمورها وتوجيه نشاطاتها ، ومديرة تنفذ خطط الجمعية وتشرف اشرافا مباشرا على أجهزة الجمعية ومشاريعها الخيرية ، وجمعية عمومية تضم ١٢٠ عضوا . ومن أبرز نشاطات الجمعية أنها ترعى دار حضانة تضم نحو ١٥ طفلا ، وهي على غرار دار الحضانة التي ترعاها « جمعية النهضة النسائية الخيرية » بالرياض . كما تعنى الجمعية بالأمهات والأطفال حيث افتتحت في مقرها عيادة يعمل فيها طبيبان من وزارة الصحة للاشراف على الأمهات الحوامل والأطفال وتقديم وجبات غذائية كاملة لهم . ويبلغ عدد المترددات على العيادة نحو مائة أم في الأسبوع الواحد . والجمعية ايمانا منها بتأهيل الفتيات وربات البيوت عن طريق تدريبهن وتعليمهن لرفع مستواهن الاجتماعي والاقتصادي افتتحت فصولا مجانية لمكافحة الأمية كان الاقبال عليها شديدا حتى وصل عدد الملتحقات بها نحو ٣٠٠ دارسة . كما انها أوجدت قسما للتدريب على التطريز والخياطة والتفصيل التحق به في ربيع الأول من عام ١٣٩٢ نحو ٧٥ سيدة وفتاة .

قاعة الطعام التي يتناول فيها صغار جمعية النهضة النسائية الخيرية بالرياض وجباتهم اليومية .





طبيبة منتدبة من قبل وزارة الصحة تزور مقر « جمعية النهضة النسائية الخيرية » بالرياض مرتين في الأسبوع لمعاينة أطفال دار الحضانة .

مربية متخصصة ترعى أطفال دار الحضانة في « جمعية النهضة النسائية الخيرية » بالرياض .

ثم بدأت الجمعية برنامجا جديدا يعتبر مصدر ايراد لها حيث افتتحت قسما لتعليم اللغتين العربية والانجليزية عندما لمست الجمعية حاجة بعض العربيات والأجنبيات في جدة الى تعلم اللغات .

وبالاضافة الى تلك النشاطات الاجتماعية ، تقدم الجمعية مساعدات مالية وعينية لكثير من الأسر المحتاجة .

ومن المشاريع البارزة التي نفذتها الجمعية حتى الآن انشاء ملاعب للأطفال تتوفر فيها جميع وسائل اللعب والتسلية . فخصصت فترات مجانية لأطفال الأسر الفقيرة ، وفترات أخرى للأطفال الآخرين مقابل دفع رسوم رمزية .

وتقيم الجمعية معرضا سنويا وسوقا خيرية يرصد ريعهما لمشاريع الجمعية ، وقد بلغت ايرادات السوق الخيرية في عام ١٣٩٠/١٣٩١هـ نحو تسعين ألف ريال . ومن المشاريع التي تتطلع الجمعية الى تحقيقها أيضا ، بناء دار حضانة وروضة نموذجية على الأرض التي منحت لها من قبل الدولة . وتقدر تكاليف الانشاء بنحو نصف مليون ريال . وقد بلغت ايرادات الجمعية في عام ١٣٩٠/١٣٩١ نحو ٣٤٧ ألف ريال صرف منها ما يقرب من ١٠٣ آلاف ريال .

جمعية اليقظة النسائية

وفي مدينة الطائف قامت في عام ١٣٨٣هـ جمعية نسائية هي « جمعية اليقظة النسائية الخيرية » التي راحت منذ تأسيسها توسع رقعة نشاطاتها في مجال الرعاية الاجتماعية . وفي بداية الأمر اقتصرت خدماتها على تقديم المساعدات المادية والفنية للمحتاجين . ثم لم تلبث أن أخذت في توسيع قاعدة نشاطها انطلاقا من مفهوم الرعاية الاجتماعية للتأهيل . فافتتحت فصولا لمكافحة الأمية أسوة بغيرها من الجمعيات ، وأوجدت قسما لتعليم الخياطة والتفصيل . والجمعية تخطط حاليا لانشاء روضة للأطفال . وقد بلغت ايراداتها في عام ١٣٩٠/١٣٩١ نحو ٦٨ ألف ريال .

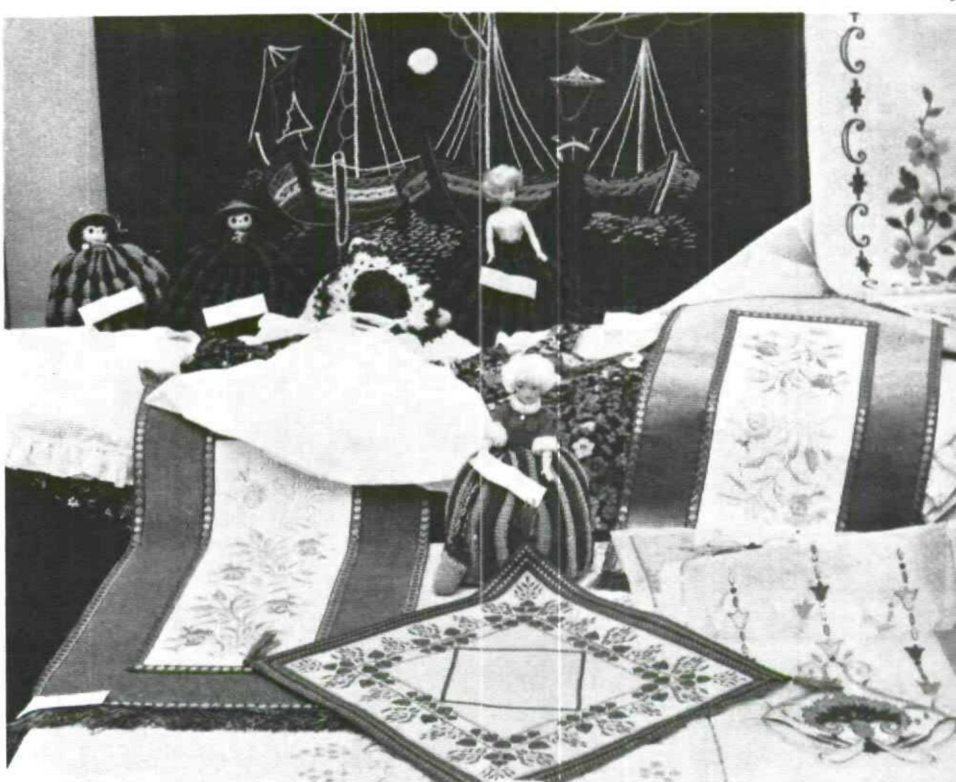
ومن الجمعيات الحديثة في المنطقة تأسست في مدينة رغدان في منطقة الباحة جمعية خيرية في منتصف عام ١٣٩٢هـ . وقد أوفدت المديرية العامة للرعاية الاجتماعية أخصائيا لمساعدة الجمعية على وضع لائحتها التنظيمية وانتخاب مجلس ادارة لها .

وهكذا تسهم الجمعيات الخيرية في المملكة في النهوض بالمجتمع الى المستوى اللائق به بين المجتمعات المتطورة وذلك في اطار تعاليم الشريعة الاسلامية ومبادئها السامية ■

سليمان نصر الله — الظهران



السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز مدير عام «المديرية العامة للرعاية الاجتماعية» في جولة لإحدى دور الرعاية الاجتماعية .



المعروضات التي تزدان بها جنبات المعرض السنوي الذي تقيمه « جمعية النهضة النسائية الخيرية » بالرياض .

تصوير : سعيد الغامدي

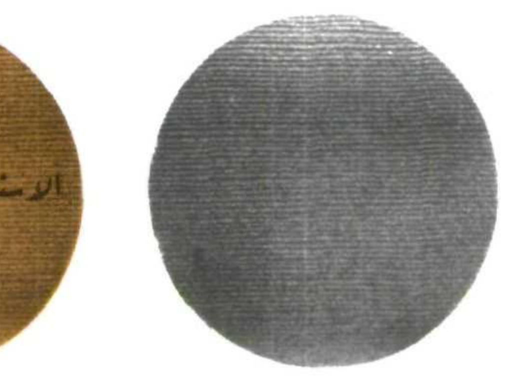
نظام النقد الدولي بين النظرية والتطبيق

قبل أن نخوض في البحث في موضوعنا هذا ، لا بد لنا من أن نتعرّف الى العوامل التي تؤثر على نظام النقد الدولي وتؤدي الى تحولات في اتجاه التجارة الدولية ، وكذلك الى الأسباب التي تحدد آراء الاقتصاديين تجاه المشكلات الاقتصادية النقدية .

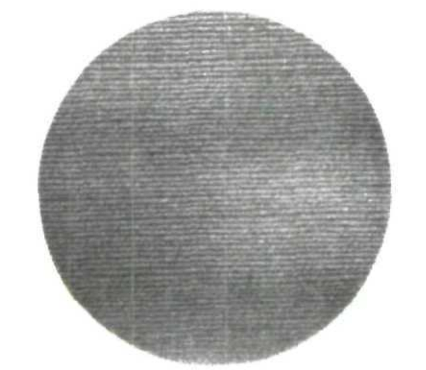
ان معرفة اتجاه أفكار الاقتصاديين ، سيان كان ذلك في كيفية بناء نظرياتهم الاقتصادية ذات الصبغة العلمية المجردة أو في تصميم توصياتهم حيال السياسات النقدية الدولية لأساس ضروري يشرح معضلة النقد الدولية . ومع أن ذلك يبدو ضئيل الأهمية باعتباره يخص الاقتصاديين النظريين لا العمليين ، الا أن تقديرنا لفعالية نظام النقد الدولي يبدو مستحيلا ما لم يستند الى واقع الأحداث النقدية الدولية بالاضافة الى تحليل بعض الأسس العلمية التي يستند اليها الخبراء الاقتصاديون لرسم سياسة النقد الدولية .

ان استقراء السياسات الاقتصادية الدولية من واقع التاريخ الاقتصادي وتطورات النظرية الاقتصادية لا يساعدنا على فهم المشكلة العملية فحسب ، بل يدل على أن أحداث الماضي كثيرا ما تضع قيودا فكرية على نمو السياسات التجارية على المستوى الدولي ، لأن حل المعضلة التجارية كثيرا ما يميل الى حلها بطريقة اصطناعية عن طريق تحويل المجرى الاقتصادي الى ما قبل حدوث المشكلة ، على الرغم من أن ظروف الماضي الاقتصادية قد اختفت أو انها تتلاشى تدريجيا . ومن أسباب ذلك عدم قدرة الاقتصاديين على معرفة مراحل التطورات الاقتصادية بصورة اجمالية ، وتلك لمن أصعب الأمور .

وهناك سبب آخر ساهم في تعقيد حل مشكلة السياسة التجارية الدولية ، وهو نابع من طبيعة التطبيق العملي في ميدان التبادل الدولي . مثلا ، سياسة التصدير والاستيراد لأي دولة تصطدم بالسياسات الاستثمارية للدول الأخرى فتبدو الحاجة ملحة الى تسوية عادلة بين مصالح الدول الأخرى وأهدافها . وسيان كانت الحلول بين دولتين أو على مستوى اقليمي أو عالمي ، فان التسوية بين المصالح المتضاربة ستظل عاملا متغيرا ما ظلت الحاجة الى توسيع حجم التجارة الدولية ، وستظل حاجة دائمة وملحة دون شك . ولكن هذه الحاجة هي بدورها ، تميل الى اتخاذ مراحل مختلفة من الالحاح لأسباب مختلفة تتلخص في أن الادراك البشري لأهمية التبادل الدولي يجنح الى الاستقلال







عن الحاجة الحقيقية الى تنمية التجارة الدولية . مثال ذلك ، أن نمو التوسع التجاري يمثل الوجه الحقيقي لسعي الدول القوية الى السيطرة على المزيد من الأسواق باعتبارها شرطا أساسيا للتوسع التجاري، وهذا لا يتم الا في ظل دولة أو دول قوية تمتلك من أسباب القوة ما يجعل ظاهرة بسط النفوذ التجاري تقترن بتوسع نشاط التبادل الدولي . وفي العصور القديمة صحب ازدهار التجارة الدولية نشوء المستعمرات الفينيقية في مالطة وصقلية .

ويبدو أن نتائج هذه الفلسفة السياسية التجارية لم تؤد الى ضعف النمو التجاري فحسب ، بل الى ركود فانهيار فكري في مجال التجارة الدولية ، لأن استخدام القوة والحروب أثارت دواعي النزاع ليحل محل التبادل الدولي .

لقد نمت التجارة الدولية في العصور الوسطى ونما معها مفهوم استخدام القوة ، ويبدو أنه لم يصحب تبادل السلع والخدمات تبادل فكري في فلسفة التجارة الدولية ، على الرغم من أن العصور الوسطى اتسمت بالنشاط العلمي وازدهار التجارة في الأقطار الاسلامية . لقد شرح المؤلفون الاقتصاديون من مسلمين وغيرهم ، الجوانب الاقتصادية والفكرية التي صحبت اتساع التجارة الدولية في العهد الاسلامي وحللوها ، ولكن بعضهم يميل الى التلميح بأن هناك شبه احتكار اسلامي للتجارة الدولية . وهذا في نظري له أربعة أسباب :

الأول : أن القوة الحقيقية للأمة الاسلامية توحي باحتكار الأسواق الدولية لصالح الدول الاسلامية .

الثاني : ما يمكن تسميته « بالاسقاط » وهو أن الدول القوية السابقة كثيرا ما تنتهج سياسة تجارية تستهدف انماء قوة الدولة .

الثالث : وجود فئة من المؤرخين تعرف كيف كانت العلاقات الاقتصادية الاسلامية تسير ، ولكنها تدعي بوجود قيام احتكار دولي في ظل السياسة الاقتصادية الاسلامية بالرغم من أن قواعد الشرع تحرم مختلف أنواع الاحتكار .

الرابع : يقترن لفظ احتكار بقيام صناعة السفن الاسلامية بشكل غير مألوف ، فأطلق على ذلك « احتكار » مع العلم بأن لفظ احتكار بالمعنى الاقتصادي الحديث يشمل درجات مختلفة من الاحتكار وشروطا أخرى لا تنطبق على ما يسمى باحتكار التجارة الاسلامية .

والحق أن هناك علماء اقتصاديين يشيدون بفضل العرب على العالم – أوربا بوجه خاص – لنقلهم سلعا جديدة مثل قصب السكر والحرير وصناعة الورق والخبرات في المجال الاقتصادي التجاري .

لا شك في أن من نتائج الحروب الصليبية تدفق المعرفة الشرقية الى جانب السلع والمنتجات عبر موانيء البحر الأبيض المتوسط ، ولكن هل ساهم التبادل الفكري بتغيير فعلي في مفهوم وظيفة التجارة الدولية ؟ في اعتقادي أن تلك الفترة كانت نقطة انطلاق حيوية ، لا في تاريخ التطورات الاقتصادية الدولية فقط ، بل في توسيع مجال التبادل الدولي ، لأنها أحدثت تغيرات في السياسة التجارية وفي مفهومها . فبعد اتساع الفتوحات الاسلامية ، طبق في أوربا وفي – البندقية بالذات – سياسات تجارية جديدة ، أهمها : التشجيع المدبر للانتاج المحلي ، والرقابة على الواردات والصادرات ، وقيود الهجرة على العمال المهرة . وعلى الرغم من أنه يفصلنا عن تلك الأحداث ما يقرب من سبعمائة سنة ، الا أن ما حدث من تشجيع في الصادرات والحد من الواردات وتنظيم الهجرة ، أمور حيوية ومهمة في اطار السياسة التجارية الوطنية في الوقت الحاضر . وهذا ما يدعوني الى القول بأن أوجه الشبه لعناصر السياسات التجارية تكاد تطغى على عناصر الاختلاف ، وان اختلفت العصور . فأوجه الشبه تتمثل في تنظيم التجارة الدولية ، بل وأهم من ذلك استراتيجية التجارة الدولية ، فسياسة السيطرة والقوة سادت العصور القديمة ووصلت الى ذروتها ابان الحروب الصليبية التي مهدت بدورها الى قيام تيار جديد في مجال السياسة التجارية يبدو مغايرا لما قبله ، ولكنه يعكس الاتجاه نفسه ، ألا وهو قيام ما يعرف بالسياسة التجارية التي تخضع الموارد الاقتصادية كافة الى تطوير قوة الدولة الوطنية ، وهو ما يمكن تفسيره بأنه يضحي بالرفاه الاقتصادي في سبيل بناء الدولة الوطنية ، وهذه الفلسفة أطلق عليها « المركنتيليه » أي « السياسة التجارية » . صحيح أن هذه الفلسفة لا توجد في العصر الحديث بمعناها المطلق ، ولكن نشدان قوة الدولة الوطنية وتسخير السياسة التجارية لهذا المبدأ لا تزال قائمة ، وخير مثال لذلك الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وقيام السوق الأوروبية المشتركة .

فاستراتيجية الولايات المتحدة التجارية تنسجم مع سياستها الخارجية لأن الحفاظ على قوة الدولة كقوة عالمية أمر مهم من الوجهة العلمية ، وقد وصفت صحيفة « نيويورك تايمز » هذه السياسة بأدق تعبير اذ سمت السياسة التجارية الأمريكية بـ « المركنتيليه » الحديثة ، أو « العضلات القومية » ، كناية عن السعي الى الحفاظ على قوة الدولة وتطويرها عن طريق التدخل المباشر واللجوء الى عقد الاتفاقات الدولية . ومن استراتيجية الدول القوية ، كأمريكا والاتحاد السوفيتي ، حرصها على الحصول على ما يسمى بالمواد الاستراتيجية ، وبعض الخبرات الفنية .

أما أوجه الاختلاف فيأتي في مقدمتها تقنين الأمور التجارية واستخدام المنظمات والمؤسسات الدولية واحلال القانون محل القوة ، وان ظلت صبغة الاحتكار القانوني قائمة . ومن أوجه الاختلاف أيضا سعي دول العالم الى زيادة دخول الأفراد الحقيقية من السلع والخدمات ورفع مستوى الرفاه الانساني . وهذه هي النقطة الأساسية التي ، على الرغم من أنها تحمل أسباب الخلاف لصعوبة التوفيق بين المصالح المتعارضة ، فانها توحد بين دول العالم جميعا بسببين :

الأول : ان كل دولة تدرك أن سعي الدول الأخرى الى زيادة دخلها القومي عن طريق زيادة حجم التبادل التجاري حق شرعي ، ومن أدلة ادراك ذلك تغيير وظائف التمثيل الدبلوماسي الذي تحول من وظيفة الدبلوماسية الكلاسيكية الى وظيفة حديثة تسعى الى تنشيط وتسهيل التبادل التجاري والفني .

الثاني : الميل الى التعاون الدولي في مجالات التجارة الدولية عوضا عن استخدام التجارة كأداة سياسية مجردة ، بمعنى أن تنمية حجم التبادل الدولي أصبح هدفا أساسيا وهو لا يتحقق الا بنمو صادرات المجموعات الدولية مجتمعة لا بنمو صادرات دولة على حساب الأخرى . وهذا ليس التزاما انسانيا تحدده دوافع الأخلاق ، وانما تفهما دوليا تقرره طبيعة نتائج سير العلاقات الاقتصادية ، بمعنى أن زيادة تداخل الاقتصاد الدولي أسفرت عن خلق وحدة اقتصادية تكاملية الوجود .

حقا انه لا يزال التقسيم التقليدي للاقتصاد الدولي يسيطر على المفهوم الحقيقي ، فمثلا التقسيم بين دول صناعية وأخرى زراعية ، أو

دول متقدمة وأخرى متخلفة ، وبينها درجات مختلفة من حيث النمو أو التخلف ، ولكن هذه تقسيمات لا علاقة لها بحقيقة سير الظروف الاقتصادية بشكل كلي ، وذلك لأن القوى المحركة لظروف العرض والطلب للأسعار العالمية أصبحت أقوى وأنفذ من ذي قبل ، بمعنى أن حساسية الأسواق الداخلية لم تزد فحسب ، بل أصبحت أكثر استجابة لما يحدث في الأسواق الخارجية ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر (١) . واذا نظرنا الى سجل التاريخ الاقتصادي نرى أن الولايات المتحدة الأمريكية تعرضت ما بين ١٨٦١ و ١٩٧١ الى سبع أزمات مالية ، هي كما يلي :

- أزمة ١٨٦١م وقد حدثت بسبب افلاس المؤسسات الجنوبية للولايات المتحدة وتقلص العملة .
- أزمة ١٨٧٣م بدأت بعجز مؤسسة « جاي كوك » عن اتمام السكك الحديدية ، الأمر الذي تسبب في انهيار الثقة بالعملة .
- أزمة ١٨٩٣م وترجع أسبابها الى قيام المضاربات المالية ، وهو يعني الحد من النشاط الاقتصادي ، لأن أرباب المشاريع الصناعية كانوا يواجهون نقصا في السيولة النقدية وارتفاعا في معدلات الفائدة ، وهذا يعني تعطيل قطاعات مختلفة من المواد الاقتصادية .
- أزمة ١٩٠٧م وهي من أغرب الأزمات ، لأنه على الرغم من تزايد كميات الذهب والمسكوكات وغيرها وزيادة الثقة بالعملة فان طبيعة عمليات النشاط الاقتصادي الفنية أدت الى نقص في السيولة النقدية .
- أزمة ١٩٢٩م وترجع الى انخفاض حاد في الأسعار ، تلاه تدهور في الطاقات الانتاجية .
- أزمة ١٩٦٨م وأزمة ١٩٧١م ، تعود أسبابهما الى استفحال المنافسة الدولية وتغيير البنيان الدولي ويلاحظ أن الأزمات الخمس الأولى ترجع الى أسباب تبدو مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف ما هو الا اختلاف شكلي ، لأن النقص في السيولة النقدية أو العوامل النفسية مثل عدم الثقة الكافية أو المضاربات المالية وغيرها ترجع جميعها الى سبب رئيسي واحد هو نقص الكفاءة الادارية المالية ، بخلاف الأزمتين السادسة والسابعة ، فقد كانت الكفاية الادارية المالية متوفرة فيهما ، وهي شرط ضروري للاستقرار ، ولكنه غير كاف بسبب حدوث تغيرات سريعة ، لا في البنيان الدولي فحسب ، بل في استقطاب الاستثمارات الدولية .

وتعبير « استقطاب الاستثمارات الدولية » ما هو الا مفهوم تعبيري لشرح العلاقة بين اتجاهات الاستثمارات الدولية وردود الفعل في الأسواق العالمية .

ولكن هناك أنواع عديدة من استقطاب الاستثمارات الثنائية (٢) واستقطاب الاستثمارات المتعددة الأطراف على المستوى الدولي ، ففي الحالة الأولى نجد أن الأسواق العالمية تميل الى الازدهار السريع في أوائل مراحلها ، ثم يبدأ الركود فالانحدار في حجم المبادلات الدولية مثال ذلك ما حدث في أوائل النمو الصناعي ، حيث انقسم العالم الى قسمين تقريبا ، قسم ارتفعت فيه الانتاجية الاقتصادية ، وقسم تأرجحت فيه معدلات الانتاج نحو الانحدار .

أما عندما تتعدد نواحي التنويع في المجتمع الدولي بشكل نسبي ، فان حساسية الأسواق العالمية لظروف العرض والطلب تكون أشد تقلبا ، لأن العلاقة بين التحولات الدورية في معدلات الانتاج واستقطاب التثمير الدولي الاجمالي متغيرة وغير مستقرة ، فبدلا من أن تتقلب الأسعار بصورة تدريجية — كما في حالة الاستثمارات الثنائية — ونحو مستوى واحد ، نجدها تتخذ عدة مستويات بسبب اختلاف مستويات النمو الصناعي والانتاجية الدولية .

ففي البلاد التي تتسم بالانتاجية المرتفعة والسريعة يكون من أرجح الاحتمالات أن يصحب نموها الاقتصادي نمو نقدي ينسجم مع مستوى الانتاج ، ولكن بما أن هناك بلدان يرتفع فيها النمو النقدي دون نمو في انتاجها الحقيقي ، فان اتجاه الأسعار يرتفع في هذه البلدان بشكل غير تدريجي بحيث تظل الهوة تتسع بين اتجاه الأسعار ومستوى الانتاجية . وباختصار فان تيارات الأسعار الدولية يمكن تقسيمها الى قسمين تقريبا .

تيار أسعار شبه ثابت ، بمعنى أن عرض النقود يتركز حول سعر ثابت يماشي النمو الاقتصادي ولكن تعوزه القوة الدافعة الى الاتجاه نحو المستوى العام للأسعار الدولية الجارية ، وهذا نادر ويمكن أن يحدث في الاقتصاد شبه المقفل .

أما في الاقتصاد الحقيقي فانه نظرا الى أن سرعة استجابة الأسواق العالمية لقوى العرض والطلب فان تشابه النمو الاقتصادي (مثل تشابه انتاجية الدول الصناعية) يجعل التيارات المختلفة تميل الى الاتحاد ، لتشابه نمو الانتاجية بشكل اجمالي وبسبب استقطاب التثمير الدولي .

لكن ما هي نتائج استقطاب التثمير الدولي ؟

بما أن للبعد الزمني دورا رئيسيا لحدوث عمليات الاستقطاب لينعكس على سير العلاقات الاقتصادية الدولية (٣) فان آثار تلك النتائج تعتمد على عوامل الزمن بما فيها التطورات الدولية والاقتصادية في العالم . فمثلا كان من نتائج الماضي أن فقدت بريطانيا مركزها التجاري ، وما نتج عنه من عوامل الضعف للعملة الدولية . فبريطانيا نعمت بنمو في صادراتها طوال القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين ، الا أنه تبدلت الأحوال في حوالي بداية القرن العشرين لأن ثقل الاستثمارات الدولية اتجه لصالح المانيا والولايات المتحدة ، ولأن توزيع الانتاج الدولي نجم عنه تغير أساسي في فعالية الاستثمارات البريطانية ، فبعد أن كان نصيب بريطانيا من الانتاج الصناعي العالمي يمثل ٣١,٨٪ في عام ١٨٧٠ هبط الى ٩,٦٪ في عام ١٩٣٦ ، بينما ارتفع انتاج الولايات المتحدة من ٢٣,٣٪ الى ٣٢,٢٪ خلال الفترة نفسها هذا بالاضافة الى زيادة نصيب كل من روسيا واليابان . كما يلاحظ أن تحولات الاستثمار اتجهت لصالح المانيا بحيث ارتفعت صادراتها الى ٥٠٠ مليون دولار في عام ١٨٧٢ ثم الى ٢٤٩٤ مليون دولار في عام ١٩١٣ . ومن المعتقد أن لهذه التحولات أسبابا رئيسية — هناك أسباب فرعية أيضا — يأتي في مقدمتها رفع مستوى الأبحاث للانتاج الصناعي ، وكذلك تطور المهارة الفائقة في الادارة المالية . هذا لا يعني أن المانيا تفوق بريطانيا من ناحية فن الادارة المالية بل ربما كان العكس صحيحا ، ولكن نظرا لتغير البنيان الدولي وانتهاء ظروف الاستقرار الاقتصادي الذي ساد إبّان زعامة بريطانيا الاقتصادية ، فان سوق الاستثمارات الدولية كان لا بد وأن تستجيب للتغيرات الجارية . وكان من المتوقع أن يكون استقطابها معاكسا للاستثمارات البريطانية لأسباب منها :

- ان نمو التحسينات الصناعية أدى الى ارتفاع الطاقة الانتاجية عن مستواها السابق في المانيا والولايات المتحدة .
- ان بريطانيا كانت تركز استثماراتها في

---

(١) أزمة قاعدة الذهب كانت داخلية ثم تسربت الى بقية العالم . (٢) مثال ذلك اليابان والولايات المتحدة . (٣) من بين أسباب ذلك أن الزمن الذي الدول التي تتكون منها السوق كثيرا ما يختلف نموها الاقتصادي ، وبالتالي قد لا تؤثر على مجرى التجارة الدولية .

الصناعات الاستخراجية وبعض المنافع العامة ، مثل توليد الكهرباء وبناء الطرق . وملاحظ أن نمو الاستثمارات البريطانية قد استهلك بعده الزمني ليكون أسرع استجابة لتغيرات الاستثمارات الدولية ، التي نضجت قبل قيام الحرب العالمية الثانية .

وبما أن استقطاب الاستثمارات أمر غير متوقع الحدوث في الظروف غير الطبيعية (كالتركيز على اقتصاد الحرب) فان فقدان بريطانيا لمركزها السابق ، والركود الاقتصادي الذي منيت به بقية الدول الأوربية خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها يدل على أن أي تغيرات في البنيان الدولي تنعكس على الحالة الاقتصادية للدول المختلفة أو المجتمع الدولي ككل ، لا استجابة للأوضاع الاقتصادية الدولية فحسب ، بل للشكوك في مواقف الدول الأخرى . والسبب الآخر أن وجود دول صغيرة في البنيان الدولي يخلق درجات مختلفة لأهمية التجارة الدولية ، اذ تتناسب هذه الأهمية تناسبا عكسيا مع الحجم المطلق لاقتصاد كل دولة . ومع أخذ هذه الحقيقة في الاعتبار فاننا ندرك في الحال أن التفكك الذي يحدث في الكتلة الدولية لا بد وان يتلوه انحدار وتدهور في مستوى حجم المبادلات الدولية ، وهذا ما حدث بوجه الدقة للتجارة الدولية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، لأن الدعوات المتطرفة للاكتفاء الذاتي ساهمت في تشييد الحواجز والقيود على التجارة بين الدول والتي كان لصداها الدولي موجة عنيفة من الانتقادات التي وصلت الى الذروة في عام ١٩٣٩ وكانت من الأسباب التي أطاحت بقاعدة الذهب آنذاك .

ولكنها في الوقت ذاته أيقظت الدول الصغيرة الى تغير في سياستها التجارية ، لأنها أول متضرر من تقلبات التجارة الدولية وانحسارها . ولهذا السبب ، ولاختلاف أهمية التجارة الدولية بين الأمم ، لم تسفر التغييرات الأخيرة في البنيان الدولي عن تغير جذري في المراكز الدولية الوطنية ، بل أسفرت عن تغيير في الاتجاه الفكري لحل المشاكل الدولية الاقتصادية ، فنجم عنها ما يلي :

أولا — التبدلات التي غيرت المراتب الدولية : فقد انتهت الهيمنة البريطانية على المسرح التجاري الدولي والتي دامت قرنا واحدا (١٨١٤—١٩١٤) . وانتقلت الزعامة التجارية الدولية الى الولايات المتحدة الأمريكية . كما حدثت تغيرات جوهرية مهمة لتغيير مجرى التجارة الدولية وظهور المرحلة الجديدة لتركز استقطاب الاستثمارات الدولية ، والذي كان من نتائجه ظاهرة التكتل الدولي، ومن أمثلته قيام السوق الأوروبية المشتركة، وتلك حالة خاصة .

ثانيا — التبدلات التي غيرت الاتجاه الفكري : من الطبيعي أن يكون هناك مشاكل مختلفة وأفكار مختلفة لحل المشاكل الدولية ، وهذه الأفكار متعارضة تعارض المصالح الوطنية لكل دولة وهي أبعد ما تكون عن التجانس والانسجام ، ولكن لغرض هذه المقالة فسأركز اهتمامي على تيارين فقط في تقوية ظاهرة الاستقطاب للتثمير الدولي منذ نهاية الثلاثينات ، وهما :

• المنهج الوظيفي : ويتلخص في الدعوة الى تنمية المنظمات الدولية لتسهيل التعاون الدولي الاقتصادي مع الحفاظ على سيادة الدولة . وقد تزعمت بريطانيا هذا الرأي مع الدول الاسكندنافية.

• المنهج الفدرالي : وقد تزعمته فرنسا وايطاليا والدول المنخفضة . ويرى أنصار هذا المنهج أن حل مشاكل أوربا الاقتصادية يكمن في اقامة مؤسسات تتجاوز سلطاتها بعض الامتيازات القومية . ويمكن القول أن السوق الأوربية المشتركة امتداد لهذه الفكرة ، بل ونقطة تحول في مجرى الزعامة التجارية المعاصرة(٤) .

وصفوة القول أن التبدلات التي غيرت المراتب الدولية والأحداث التي غيرت مفهوم التجارة الدولية أحدثت تحولات جذرية في أساليب السياسات التجارية واستراتيجيتها . وكان اختلاف الأساليب وتنوع الاستراتيجية الدولية استجابة طبيعية لاختلاف الأهداف والمصالح الدولية ، ومع هذا ظل وسيظل طيف المشكلة الاقتصادية طيفا واحدا حتى وان اختلفت قدرة الدول على رؤيته وتعدد مسمياته . مثال ذلك عجز ميزان المدفوعات ، وأزمة العملة الصعبة ، ونقص السيولة الدولية . وبامكان القارىء أن يستنتج من الأزمات السابقة أن نقص السيولة الدولية يقلص الانتاج ، ويتسبب في انحدار معدلات النمو الاقتصادية .

ونظريا تقتضي أي استراتيجية تجارية تقدير الأولويات التفضيلية ضمن اطار السياسة التجارية ، ولكن بما أن الاستراتيجية التجارية تتضمن جانبين، هما : سياسة الأسعار الداخلية للبلد (مثل الحفاظ على حجم الاستخدام) ومجاراة الأسعار الدولية لاحراز توازن في ميزان المدفوعات ، فان المشكلة العملية هي التوفيق بينهما ، لأن الحفاظ على ميزان الأجور والدخول يميل الى رفع الأسعار المحلية بالنسبة الى العالم الخارجي . وارتفاع الأسعار في الداخل يتسبب في تخفيض نمو صادرات الدولة ، فعجز في ميزان مدفوعاتها ، لأن معدلات الاستبدال تقررها الظروف الداخلية والخارجية معا فالمعروف أن معدلات الاستبدال الدولي هو النقطة الرئيسية التي تدور حولها الأسعار . اذن ما هي احتمالات معدلات الاستبدال الدولية واتجاهاتها ؟ اذا استبعدنا حرية التجارة المطلقة التي تترك فيها معدلات التبادل الدولي تتفاعل وتتعدل تلقائيا ، فان تثبيت معدل التبادل الدولي — بالاسترليني أو الدولار — لا بد من أن تصحبه تعديلات معينة بين فترة وأخرى وفقا لظروف العرض والطلب ، ولكن هذه التعديلات ليست من السهولة بمكان لأنها تمس أجور الأفراد ودخولهم . فاذا كانت التعديلات التي تستجيب لها الدولة لتحسين ميزان مدفوعاتها تقتضي سياسة انكماشية ، فلا بد من أن يكون ضحيتها أشخاص معينون يفقدون أعمالهم ، وهذا ما يثير التساؤل عن كيفية التعديلات الأساسية في معدل الاستبدال ، وهو ما يضع أمام الدولة ، اختيارين كلاهما مر ، وهما : تحسين ميزان المدفوعات ، أو تخفيض مستوى الاستخدام .

يستنتج من هذا أن المعضلة العملية تتلخص في أن الرخاء الانساني يعتمد على مقدار نجاح نظام النقد الدولي في معالجة هذه المعضلة التي تسمى أو تنعت بنقص السيولة الدولية . وتتلخص آراء الاقتصاديين لحل هذه المعضلة فيما يلي :

أولا — خطط التكيف التلقائي : (العودة الى قاعدة الذهب) ودعاة التكيف التلقائي يختلفون حول الطريقة التي يتمكن فيها النظام المالي من تعديل نفسه ، ولكنهم يتفقون من حيث الخطوط العامة لنظريتهم ، وتتلخص في أن ما تمتلكه الدولة من الذهب يحدد شكل العرض لعملتها الداخلية والمحلية . ولتفسير ذلك لنفرض أن هذه الدولة تعرضت لعجز في ميزان مدفوعاتها ، وطبيعيا انها تسدده من أرصدة الذهب التي تمتلكها ، ولكن بما أن خروج مقادير معينة من الذهب يجعلها تتجه من هذه الدولة التي تعاني نقصا في ميزان مدفوعاتها الى الدولة التي تتمتع بفائض في ميزان مدفوعاتها ، فان النتيجة النهائية تنعكس على عرض العملة الداخلية لكل من البلدين ، أي ان

لانشاءات الاستثمارية ونتائجها لا يقل في الغالب عن ثلاثين عاما . (٤) هذا لا يعني أن قيام أسواق مشتركة يخلق مزايا اقتصادية وتحسن في الميزان الدولي لأن

الدولة التي أصيب ميزانها التجاري بعجز سينخفض عرض عملتها الداخلي ، والأخرى يرتفع عرض العملة الداخلي بها . ويقولون ما معناه أن هذا التفاعل يتسبب في انخفاض الأسعار الداخلية للبلد الذي يعاني عجزا في ميزان المدفوعات ، فيرتفع الطلب الخارجي على منتجاته ، ويزداد التصدير ، فيعوض العجز تلقائيا . بينما يحدث العكس في البلد الذي يتمتع بفائض في ميزان مدفوعاته ، اذ ينتج عن تدفق الذهب اليه ارتفاع في الأسعار بالنسبة لمنتجاته ، مما يقلل الطلب الخارجي عليها ، وبالتالي انخفاض في التصدير على حساب الاستيراد من البلد ذي العجز في ميزان مدفوعاته(٥) ويفترض في هذا النظام وجود معدلات مرنة للتبادل ، بحيث يسمح لهـا بالتأرجح بين حدود معينة ، هبوطا وارتفاعا .

ثانيا – توصيات زيادة السيولة الدولية « المعاصرة » : ان أي توصيات أو خطط لزيادة السيولة الدولية لا بد وأن ترتكز على الخطة الكنزية ، بل ولا يحتمل أن تذهب بعيدا عن مضمون الفرضيات الكنزية ، وهنا ينتقل عبء زيادة السيولة الى صندوق النقد الدولي الذي يجب أن يسعى لتدبير احتياطيات دولية ، منها حقوق السحب الخاصة . ويسير ضمن هذا الاتجاه خطط عديدة أشهرها خطة « تريفان » التي ترمي الى اضافة احتياطيات جديدة عن طريق صندوق النقد الدولي ، وذلك بامتلاك الدول الأعضاء ٢٠٪ من احتياطياتها في الصندوق الذي يقوم بدوره باقراض الدول الأعضاء .

وهذا يقتضي باديء ذي بدء أن تتخلى الدول عن استخدام عملاتها الوطنية كاحتياطي دولي يقوم صندوق النقد الدولي باستبدال ودائعه من الدولارات والجنيهات الاسترلينية بودائع رسمية ، وأن تكون قيمة الودائع الجديدة مساوية للذهب . وحيث أن العمليات النقدية هذه تستند على ما يشبه العمليات الفنية للبنوك المركزية ، فان الأستاذ « تريفان » يقترح أن تكون الزيادة ما بين ٣٪ و ٥٪ سنويا . ونظريا يعتقد أن الحد من التضخم النقدي أو الانكماش يتعدل وفقا للآلية النقدية . ويلاحظ هنا أن الاهتمام يتركز حول ابتداع معدل نمو ملائم لاحتياطيات النقد الدولي ومرتبط بالذهب عن طريق قيمة ثابتة بالنسبة للذهب تسمى «بنكور» الذي يمثل وحدة نقدية للتعاون في المعاملات الدولية .

ثالثا – النمط الحديث لبرامج الانعاش الاقتصادي في بعض الدول الصناعية : للسياسات التجارية في الدول الصناعية أقوى الأثر على النظام النقدي مباشرة ، فمثلا في ١٦ أغسطس ١٩٧١ ، غيرت الولايات المتحدة الأساس الذي يقوم عليه الدولار ضمن خطة انعاش الاقتصاد الأمريكي . ومع أن الاجراءات كانت موجهة بالدرجة الأولى لتحسين الاستثمارات الصناعية الداخلية ، الا أن ايقاف قابلية تحويل الدولار الى ذهب وفرض ١٠٪ كضريبة اضافية على الواردات أدت الى النتائج التالية :

• لم يعد الدولار أساسا قويا للمعاملات الدولية ، كما كان منذ عام ١٩٤٤ .

• نتج عن تلك الاجراءات ما يمكن اعتباره ارتدادا أو نكسة لمبدأ حرية التجارة الدولية التي سادت في سنوات ما بعد الحرب العالمية . وقد أثارت هذه الأزمة ردود فعل في دول العالم عامة ، وفي الدول الصناعية خاصة ، كاليابان وبريطانيا وكندا ، ولكن أسباب هذه الأزمة ونتائجها على السيولة الدولية يختلف عن الأزمان سابقة الذكر بما يـلي :

نظريا : تغيرت العلاقة التي تربط الدولار بالذهب ، لأن الولايات المتحدة كانت ملتزمة بدفع قيمة الدولار ذهبا (٣٥ دولار للاوقية)(٦) . ويلاحظ أن هذه عمليات فنية نقدية تجري تسويتها عن طريق الأصول والخصوم النقدية . وهذه التسوية تقوم على أساسين مهمين هما ارتباط الدولار الأمريكي بالـذهب وارتكاز العملات الدولية على العلاقـة القائمة بين الذهب والدولار .

عمليا : ارتكاز العملة الدولية على العلاقة القائمة بين الذهب والدولار يعني أن أي اختلال في ميزان المدفوعات الأمريكية يؤدي الى نتائج أهمها :

• تقلص في احتياطيات الولايات المتحدة من الذهب بسبب عزوف الأسواق العالمية عـن الاحتفاظ بالدولارات الأمريكية .

• يتولد عن هذا الاتجاه موجة دولية لزعزعة الثقة بالدولار كعملة دولية ، وهكذا تتوالى سلسلة من الأحداث ونتائجها بحيث ينشأ ما يسمى بنقص السيولة النقدية الدولية .

فاذا قرنا هذه الأحداث الاقتصادية الدولية بالمشاكل الداخلية للولايات المتحدة فاننا ندرك في الحال أهم العوامل التي تسهم في تقليص السيولة الدولية . فقد ارتفعت الأسعار فـي الولايات المتحدة الأمريكية بحيث أصبحت قيمة الدولار الحقيقية تساوي ٧٥ سنتا بدلا مـن ١٠٠ سنت ، فأدى ذلك الى انعكاس اقتصادي على المستوى الدولي ، وهو استمرار ارتفاع العجز في ميزان المدفوعات الأمريكي ، اذ بلغ ١٠ بلايين دولار في سنة ١٩٧٠ ، وحوالي ٢٠ بليون سنة ١٩٧١ . وفي الغالب ترجع أسباب هذا التدهور الى موجات التضخم في البلاد التي أدت الى انكماش في صادرات الولايات المتحدة . ولكنني أرى أن السبب الرئيسي ، والذي يكاد أن تتفرع منه بقية الأسباب ، هو نتائج حاسمة لظاهرة استقطاب الاستثمار الدولي الذي قلب ميزان القوى في صالح اليابان والسوق الأوروبية المشتركة ودول أخرى(٧) . ان هذه الظاهرة واقترانها بآلية النقد الدولي الحديث لا بد وأن تعقد حل المعضلة النقدية ، لأن مشكلة الثقة بالنقد وقوة اقتصاد البلاد والمهارة والادارية المالية التي تدعمها التجربة أمور مهمة لاستراتيجية النقد الدولي ، ولكنها ليست كافية بحيث تكبح جماح تقلبات قوى العرض والطلب على المستوى الدولي . وهذا ينطبق على الأزمات النقدية المتوالية للاسترليني ، اذ ارتفعت الأسعار في الداخل وتأثرت تجارة بريطانيا بنمو الاستثمارات الدولية . وجميع هذه الظواهر تدل على أنه وان كان الاقتصاد البريطاني قويا (٨) ، الا أن هذه القوة ستهددها مشكلتان ، هما : التضخم وهو السبب المباشر ، وانتقال رؤوس الأموال القصيرة الأجل . وقد عمدت بريطانيا الى تقويم الجنيه الاسترليني بعد أن اتخذت الاجراءات الأولية باغلاق بورصة لندن وتشاورت مع الدول الأعضاء في السوق الأوروبية المشتركة .

السمات الدولية النقدية : هذه المقارنة تكشف لـنا عن تشابه نمط السياسات الدولية النقدية بما يلي :

أولا – أدى نقص السيولة الدولية الى سرعة توالي المؤتمرات الدولية لاتخاذ اجراءات جماعية . وهذا وان كان يكشف عن مدى حساسية المجتمع الدولي لمشكلة النقد ، الا أنه يدل على أن المؤسسات الدولية تعوزها المرونة والسرعة لمجابهة الأزمات الاقتصادية ، وان تكرار انعقاد المؤتمرات الدولية ربما يؤدي الى تغـيير وظيفي في المؤسسات الدولية النقدية .

---

(٥) هذا تلخيص موجز ، وفي امكان القارئ الرجوع الى الكتب الاقتصادية للتجارة الدولية . وزعيم هذه المدرسة هو الاقتصادي الفرنسي المشهور « جاك ريف » ،
الى الاتجاه الحديث لصادرات الولايات المتحدة ومقارنتها بنمو صادرات السوق المشتركة واليابان . (٨) لقد تحسن ميزان مدفوعات بريطانيا بعد تخفي

ثانيا – الميل الدولي لاستخدام الأسواق لتحديد سعر التبادل الدولي (تعويم العملة) عوضا عن الاعتماد على التدخل المباشر لتحديد سعر التبادل النقدي المرتبط بالذهب . وربما يكون أحد الأسباب هو عجز المؤسسات الدولية عن تحديد سعر للتبادل ، لأن العلاقة بين نمو السيولة الدولية ونمو التجارة العالمية غير متجانسة وغير مستقرة ولا يمكن تحديد اتجاهات النمو فيها وان هذه المشكلة يدعمها عدم الكفاية والركود النسبي لعرض الذهب بسبب تعرضه للاكتناز واستخدامه لأغراض صناعية .

ثالثا – ان المضاربات بالذهب تتسبب في استنزاف جزء كبير من عرضه ، وهذا ما يجعله عونا ضعيفا لاحتياطيات النقد الدولية . ومن المعروف أن ظاهرة المضاربات بالذهب تدل على ضعف الثقة في العملة الدولية ، وهذا شيء صحيح . ولكن في الأزمان الحالية يتضح أن الدول ذات العملة القوية نسبيا والمرتبطة بالذهب تبحث عن اعادة الثقة بعملتها ، فتتركز جهودها على استئصال هذه الموجة . كما يلاحظ أن التركيز على محاربة المضاربين عمل يستوعب الكثير من الجهد ، بل ويصرف جهود الدولة عن العمليات النقدية الفنية .

رابعا – تحولات في السيولة الدولية ، وهذا ما يستوجب اللجوء الى تقويم العملة ، ويجعل التغير في اتجاه معدلات الاستبدال سريعا وربما يضطر الدولة الى سلسلة من اجراءات التدخل ، ولكن على الرغم من هذا فان الاستعاضة عن تحكم الدولة بمعدلات الاستبدال يبدو اجراء حكيما لا لصلاحيته المطلقة ، ولكن لأن موجات التغير السريعة بسبب استقطاب التثمير الدولي تستتبع سرعة مماثلة لتغير معدل الاستبدال .

خاصية النظام النقدي الدولي : الأحداث الاقتصادية ، ومشكلة النقد الدولي والاقتراحات التي قدمت له واتجاه الاستراتيجية الدولية التجارية حقائق معروفة ، ولكن هذه الحقائق لم تحدث وفق نظام معين يسهل على العقل البشري مهمة تفسيرها للأسباب الحقيقية لنقص السيولة الدولية وقيام أزمات النقد الدولي بين حين وآخر .

• هل نجح النظام النقدي الدولي في استئصال أسباب عجز ميزان المدفوعات الذي يحدث للدول بين حين وآخر ؟

• هل فلسفة حرية التجارة الدولية أو مذهب الحماية حريّ بأن يضمن تصرف تجاري ينسجم مع الأحداث الطبيعية للنمو الاقتصادي ؟

النظام النقدي الدولي عمد مصمموه الى علاج المشاكل التي واجهت الدول الصناعية الغربية ، وهؤلاء يستمدون تشخيصهم من وحي نظرياتهم الاقتصادية وتجارب ماضيهم الخاص بهم . حقا لقد نجح الاقتصاديون في بناء النظرية الاقتصادية سيان من حيث المنوال العلمي لشرح المتغيرات الاقتصادية لمستوى الاستخدام ، مثلا وعلاقته بالكفاية الاقتصادية وزيادة الدخل القومي الخ .. أو من حيث التحليل الاقتصادي . ان النظرية الاقتصادية الحديثة تعتمد كلية على الأسس التي أقامها « كينز » وان وفرة الانتاج الفكري الاقتصادي الحديث ما هو الا امتداد لأفكار هذه النظرية أو محاولة لاختبارها ومدى صدقها ، بما في ذلك أدوات التحليل الاقتصادي الرياضي الحديث . وأنا لا أعني التيار الحديث لزيادة سيولة النقد الدولي فحسب ، بل ان الأبحاث التي يقدمها صندوق النقد الدولي قلما تخلو من الأفكار « الكينزية » بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . ولكن مع هذا فان آلية السوق التي تؤثر على مستوى السيولة النقدية ظاهرة قديمة قد تصدى لها الاقتصاديون منذ القرن الثامن عشر بشكل نظري محض الى أن بلورها « كينز » وربطها بواقع الحياة الاقتصادية ، منها قوله : « ان التوقعات عرضة لخيبة الأمل ... وان توقعات المستقبل تؤثر على ما نقوم بعمله اليوم » . فالصفة المميزة للعملة هي أنها أداة وصل بين الحاضر والمستقبل(٩) .

صحيح أن « كينز » لم يستخدم التحليل الرياضي الذي استخدمه الأستاذ « بورتر » ومع هذا فان التعبير عن الفكرة باستخدام الرموز الرياضية عوضا عن الكلمات قد لا يضيف شيئا الى جوهرها ، وانه برجوع الأستاذ « بورتر » الى كتاب « كينز » « بحث في العملة » المطبوع سنة ١٩٢٣ ، لبناء نموذجه وعرض أفكاره ، يبين لنا مدى وثوق الصلة بين النظرية الاقتصادية وتصميم سياسات النقد الدولي ، فاذا افترضنا أن الأمر كذلك فالسؤال هو :

ما هي الخدمة الحقيقية التي قدمتها النظرية الاقتصادية لنظام النقد الدولي ؟.

حقا لقد تقدم الفكر الانساني في مختلف الميادين والعلوم . والنظرية الاقتصادية ليست استثناء من هذه الحقيقة ولكن النظرية الاقتصادية لا تقدم لنا حلولا عملية مرضية . ولو كان الأمر كذلك لاختفت مشكلة عجز ميزان المدفوعات . صحيح ان الأزمات الاقتصادية قد تقلص مداها الزمني وكبح جماح آثارها الاقتصادية السيئة ، وان ظهرت بين حين وآخر . ولكن من غير المحتمل أن تختفي الأزمات نهائيا ، لا لعجز مطلق في النظرية الاقتصادية ، بل لأسباب أهمها :

• استقطاب الاستثمار الدولي الذي ينشأ عنه تحولات في درجة السيولة الدولية .

• اختلاف معدلات النمو الاقتصادي الذي ينتج عنه عدم امتثال مستوى السيولة النقدية الدولية مع مستوى التبادل الدولي . نظام النقد الدولي لا يعالج مشكلة دولة واحدة ، بل مشاكل دول مختلفة .

• النظرية الاقتصادية أداة فكرية تساعد على تفسير بعض الظواهر الاقتصادية . وان التطورات التي حدثت في مضمون النظرية لمعرفة أسباب تقلص العملة الدولية مستقلة عن الحلول التي تقدم لهذه المشكلة . فالآلية النقدية مستقلة عن أداة التحليل الفكرية .

والسبب الرئيسي في ذلك أن المستوى العلمي الذي وصل اليه التحليل الاقتصادي أدى الى نتائج ، أهمها :

• امتصاص الجزء الأكبر من أفكار الاقتصاديين .

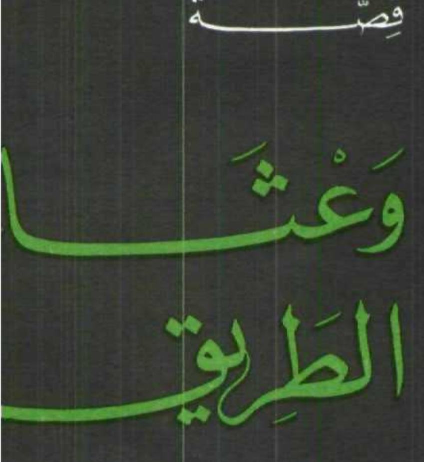
• وجود نظريات لم تؤيدها أحداث الواقع جعل مستوى التشخيص الاقتصادي الدولي في حالة شبه ركود أو تحسن بطيء .

ان وفرة الأفكار الاقتصادية لمن السمات البارزة في العصر الحديث ، الا أنه من عيوب هذه الوفرة طغيان الزخرفة النظرية على أعمال الفكر في حل المشاكل النقدية العلمية ، وهذا من أحد الأسباب التي جعلت معظم النظريات الاقتصادية مجرد نظريات لأن مؤلفيها أطلقوا العنان لأفكارهم لكي تحلق في عالم الخيال ، ومع هذا فانه يمكن الاستفادة من أغلبها ، أما البعض الآخر فسيظل سابحا في الهواء شأنه كشأن تعويم العملة لا يعلم أحد الى أين تتجه وكيف تستقر ؟ ■

محمد مسلم الردادي – جدة

كونوموست » آخر فبراير ١٩٦٥م . (٦) يلاحظ أن أسعار الذهب ارتفعت الى ٧٥ دولاراً للأوقية في ١ أغسطس عام ١٩٧٢م (٧) يستطيع القارئ الرجوع

. (٩) النظرية العامة الصفحتان ٢٩٣ و ٢٩٤



بقلم الاستاذ عزت محمد ابراهي

الطريق رحب فسيح ، والقمر يطل
عليائه ويرسل ضوءا سا
باهرا يضيء الجنبات والمنحنيات ، وعلى الجا
أشجار الكافور قد تدلت أغصانها حتى كا
أن تلامس الأرض . وعلى البعد تظهر ح
خضراء مترامية لا يحدها البصر . ويهب النسي
فيسمع للحقول حفيف كأنه الموسيقى العذب
الشجية تنساب في الآذان انسيابا . والط
الرحب الفسيح خال أو يكاد أن يكون خالي
فلا يبدو على أديمه المستوي المرصوف غير
يافع ، لا يؤنس وحشته غير القمر ، و
الطبيعة المتلألئة كأنها في يوم عرس ، أو
يوم عيد . وربما استخف بالفتى السر
والبهجة فرفع عقيرته بالغناء يقطع به سكون ا
الهادىء في وداعة واطمئنان . فاذا سكت
الغناء وانصرف الى آماله وأحلامه وأمانيه ي
لها العنان الى غير غاية .

والطريق على حاله رحب فسيح . والم
لا يزال بعيدا حتى يصل الى قريته وربما
سائرا على قدميه حتى يسفر الصباح عن وجه
وقد ود لو كان له في طريقه أنيس أو رفيق
اذن لأعانه على اجتياز طريقه الممتد الطوي
واذن لجعل يحدثه عن آماله وأحلامه وأمانيه العري

التي لا تفرغ ، ولا تحب أن تبلغ غاية الا وتطلعت الى سواها . وما كان الخاطر يمر في عقله مروره السريع الخاطف حتى بدا على البعد شبح انسان . أكان قد رآه من قبل أو وقعت عليه عيناه ، أم هي احدى عجائب نفس الانسان وغرائبها التي لا يعرف لها كنه ، ولا يفهم لها تعليل ؟ لم يكن يدري ، ولم يكن يعنيه هو أنه قد وجد أنيسا له في طريقه أو رفيقا .

وجعل الشبح يقترب ، وجعل هو يتئد في مشيه ويتمهل ، ثم التقيا ، فاذا برفيق الطريق وأنيسه شيخ قد وهن منه العظم ، واشتعل منه الرأس شيبا ، يدب على قدمين كأنهما عصوان ، ويزدان وجهه الأبيض المشرب بحمرة بلحية بيضاء صافية لا يخالطها شيء من سواد ، كأنها قد فرغت منذ زمان من تنقية أوضارها وأوشابها ، فهي اليوم بيضاء من غير سوء أو سواد .

وألقى الشيخ السلام في صوت جهوري كأنه صوت فتى في ريعان فتوته ، ورد الفتى عليه سلامه وهو يعجب من هذا النشاط وتلك الحيوية اللتين لا تتوفران لفتى أو شاب ، وتجاذبا أطراف الحديث سريعا .

قال الشيخ : هذا طريق اجتازه كل يوم لم أتخلف عن اجتيازه يوما واحدا منذ أعوام عديدة لا أذكرها ولا أحصيها ، وأرجو ألا أتخلف عن اجتيازه حتى أوارى اللحد ، ويغيبني الثرى .

قال الفتى : لعل لك عملا في القرية ، فأنت تأتي اليها من المدينة .

وهز الشيخ رأسه علامة النفي والاستنكار معا وهو يقول : كلا ، وانما أقبل من المدينة ميمما وجهي شطر القرية أصلي في مسجدها صلاة الفجر ، ثم أعود من حيث أتيت .

قال الفتى : عجيب ، أليس في المدينة مسجد تؤدي فيه صلاتك ؟

قال الشيخ : بل فيه مساجد ذات عدد ، وانما هي عادة اعتدتها ، وتيرة سرت عليها ، هذا الى أنني أوثر مسجد القرية ، أرى على وجوه المصلين فيه دلالات تقوى وعلامات ايمان لا أراها على وجوه المصلين من أهل المدينة ، والقرية بعد هذا وذاك هي مناط حبي واعزازي ، فيها نشأت ، وعلى أرضها درجت ، ولا أحب أن يفصل شيء بيني وبين أهلها ، وأرضها وهوائها ونسيمها والأخضر منها واليابس . فاذا فرغ الأجل ، ونفذ سهم القضاء ، ووقع المحتوم الذي لا راد لـه ولا معقب ، فليس أحب الي من أن أتصل بتربتها الاتصال الذي لا انفصال له ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وسكت ، وترك الفتى يهيم في تأملاته ، ويسرح ويمرح في بوادي أحلامه وأمانيه ، ثم قطع عليه أمانيه وأحلامه حين قال في صوتـه الجهوري الشديد المراس :

— وأنت ، من أين ؟ والى أين ؟

قال : من السوق في المدينة الى البيت في القرية .

قال : قروي ؟

قال : نعم .

ومضى يتحدث لا يكف عن الحديث ، قد وجد الفرصة مواتية ، كما وجد رفيق الطريق وأنيسه الذي يسمع ويصغي .

— ذهبت صباح اليوم الى السوق أجر من خلفي بقرة لي ، أنا في غنى عنها ، فبعتها بالثمن الربيح الذي لم أكن أقدره أو يخطر لي على بال ، فاذا جاء العام القادم فسأعود الى السوق أجر من خلفي بقرة وجاموسة وجملا ، أكون في غنى عنها فأبيعها بالثمن الربيح ، فما عهدت حظي الا مواتيا ، وما عهدت الظروف والأحوال معي الا سانحة ، مفترة الثغر ، عذبة البسمات ، وأجمع ثمن هذا العام الى ثمن الذي يليه وأشتري بالثمنين الربيحين معا ما يجاور حقلي من أرض ، فيتسع ملكي ، ويزداد في الطول وفي العرض .

واستمع الشيخ مبتسما متأملا ، كمن استغرق في تفكير عميق ، أو كمن أخذته سنة من نوم ، ثم صاح على حين غفلة ، والفتى في حديثه ماض مسترسل :

— انتبه يا بني الى موضع قدميك .

والتفت الفتى مذعورا وقد ظن انه على وشك الارتطام بصخرة أو حجارة في طريقه ، فلم يجد شيئا ، فمضى في سبيله ، وعاد مسرعا الى حديثه يصل حبل ما يأتي منه بما انصرم فيقول :

— أما بعد عامين فسأزرع هذا الملك — الذي يكون قد ازداد في الطول وفي العرض — قطنا ، وسأبيع محصوله بالثمن الغالي الذي لا أتهاون فيه ولا أتساهل ، وسيدر علي من الأموال قناطير مقنطرة أشتري بها ما جاور أرضي من حقول متسعة مترامية ، فيمعن ما لدي من ملك في الزيادة طولا وعرضا .

قال الشيخ على حين غفلة ، والفتى في حديثه ماض مسترسل :

— انتبه يا بني الى موضع قدميك ، فاني لا آمن عليك عثرات الطريق .

قال الفتى يحدث نفسه وقد ساءه أن يقطع عليه الشيخ حديثه ، ويحرمه من المضي في لذيذ أحلامه وأمانيه :

— ما بال هذا الشيخ الأخرق الأحمق يتحدث عن العثرات والوعثاء ، وان الطريق لرحب فسيح وان القمر ليطل من عليائه فيضيء منه الجنبات والمنحنيات ، ولست بالأعمى ، أو بالكليل البصر .

وقال يحدث الشيخ :

— ما بالك يا أبتاه تحدثني عن عثرات الطريق ، وما علمته الا خاليا رحبا فسيحا قد استوى أديمه ، ورصفت جنباته ومنحنياته .

قال الشيخ :

— انني يا بني أعلم من أمر هذا الطريق ما لا تعلم ، وقد قطعته جيئة وذهابا مئات المرات على مدى الأعوام الطوال التي سلختها من عمري ذاك المديد ، فأنا به أخبر ، ومن وعثائه وعثراته أقدر على التنبيه والتحذير .

ومضى الفتى يتحدث ويسترسل في حديثه فيقول :

— أما اذا مضى عام وعام وعام فأنا اذن أغنى أغنياء القرية كلها ، قد اشتريت حقول الفلاحين حقلا اثـر آخر ، فهم يعملون عندي بالأجر ، ليس لهم لدي من حق سوى المأكل والمشرب ليس غـيـر .

وصرخ الشيخ صرخة مدوية شقت سكون الفضاء ، وكادت أن تزلزل الأرض من هولها زلزالا ، وهو يقول محذرا منبها :

— انتبه يا بني ، فان أمامك حفرة عظيمة لا آمن عليك من السقوط فيها ، والانحدار الى قاعها .

ولكن الصراخ والتحذير والتنبيه كان قد أتى بعد فوات الآوان .

واختفى الفتى في الحفرة العظيمة ، فهوى الى أعمق أعماقها .

وانحدرت دمعة على خد الشيخ ، وقال يحدث نفسه :

— لطالما حذرتك يا بني ، ولطالما قلت لك انني أعلم من وعثاء الطريق وعثراته ما لا تعلم .

ومضى يستحث قدميه ، يرجو ألا تفوته صلاة الفجر حاضرا مع جماعة المصلين ■

عزت محمد ابراهيم — جدة

الصُّوَرُ الخَيَالِيَّة في أَدَبِ الرَّافِعِي

الباب

يتجلى لمن يتتبع حياة مصطفى صادق الرافعي ، ويدرس شعره ونثره أنه لم يكن شاعرا في قالب انسان ، بل كان انسانا في قالب شاعر ، لأن الشاعرية قوامه وكيانه .

فقد كان شاعرا في يقظته الى الهمسة الخافية ، وفي ادراكه للخلجة المتوارية ، وفي انفعالـه بالحدث الذي قد يمضي عابرا لا يكاد يلتفت اليـه أحـد .

وكان شاعرا في تخير الكلمة ، وفي اصطفاء العبارة ، وفي الانطلاق الى آفاق من الخيال يسبح فيها فنه وافتنانه ، ليعبر عن عواطفه وأفكاره . ولقد صار من الأصول الفنية التي أجمع عليها النقاد ، أو كادوا يجمعون ، أن الصورة الأدبية هي الوسيلة الفنية التي يعبر بها الشاعر عن تجاربه ، لينقلها الى الناس ، فيشركوه في عواطفه وأفكاره .

وليست الصورة الأدبية هي التشابه الظاهري الذي تدركه العيون أو الآذان أو غيرهما من الحواس ، بل هي تصوير لما أحسه الشاعر في أعماق نفسه من مشاعر ، ولهذا كان الشعر ضربا من التصوير .

والحق أن الرافعي شاعر رسام ، وكاتب مصور ، أحسب أنه لو لم يكن أديبا لكان رساما ، لأنه ذو مقدرة على اقتناص الأخيلة ، وعلى رسمها بتعبيره المسعف ، ولأنه ماهر في رسم صور جزئية يتلو بعضها بعضا ، فتبرز الصورة الكلية للفكرة أو العاطفة في اطار جميل رائع .

ولهذه الصور في شعره ونثره سمات وصفات ، لعل من أبرزها :

• انها تتتالى وتتلاصق ، فترسم أحيانا منظرا جميلا أو عدة مناظر مونقة ، لا تدري أي أجزائها أجمل وأبرع .. فهو يصف الربيع في الصباح ، فيتخيل الصباح انسانا جميلا سفر عن وجهه ، فسطعت عليه أشعة الشمس فزادته بهاء ، وفي هذا الوقت بكرت الى النهر لتملأ جرتها فتاة ريفية ممشوقة القد ، خفيفة الخطو ، تمشي على حذر واستحياء ، كأنها غزال يمشي خائفا يترقب ، ويتلفت هنا وهناك ، ويسترق الخطا ، وهذه الفتاة تختال بجمالها المطبوع ، بجمالها الذي أضفته عليها مباهج الطبيعة من حولها . ثم تخيل للروضة بسمة تفتر عن رضاب مثل رضاب هذه الحسناء .

ولاح الصبح يسفر عـن جبين
عليـه الشمس حاليـة السطـوع
وقـد بكرت لتمـلأ جرّتيهـا
فتـاة الريـف كالرشأ المروع
فـوردت الطبـيعـة وجنتيهـا
ونضر وجـهـها الحسن الطبيعي
فثغر الـروض يبسم عـن لماهـا
وان لم تشف ريقتـه ولـوعي
مكحلـة ولا كحـل ولكـن
سل الظبيات عـن ذاك الصنع

وراقه منظر زهرات الفول وهي نائمة قبل أن تشرق الشمس عليها ، وفوقها قطرات من الندى تترقرق ، فصورها فتيات نائمات في أسرتها الحريرية ، ثم أيقظهن الفجر فأفقن في شبه سبات ولما تزل عيونهن نواعس ، كأنها عيون أطفال صغار قد هوّم النوم عليها ، وهذه القطرات المترقرقة على الأزهار تشبه دموع

الاغراء والدلال التي تترجح في جفون الحو
الفاتنات :

نائمات بروضهـا فـي سريـر
بين خـز وسندس وحريـ
هزها الفجر فاستفاقت كمـا تطـ
ـرف بعد الكرى جفون الصغـ
جال فيها الندى كمـا حير الدمـ
ـع دلال الهوى بأهداب حـو

وكذلك قوله في أوراق الورد : « أما ألم الحـ
فذاك حين يأتي على اللحم والدم معنى لو تجسـ
لكان هو الذي يصهر الحديد في موج من لهـ
النار ، ويحطم الصخر في زلزلة من ضربا
المعاول . هناك الألم المدمر لا يكابده الا انسا
كأنما يراد خلقه مرة ثانية ، فيُهدم ويُبنى
أو يُراد تنقيحه فيُغيّر ويُبدّل » .

• ونلاحظ أن صور الرافعي حسية ، وأنـ
مستمدة من الطبيعة ، كقوله في وصف ليـ
بمصيف « بحمدون » :

طلـع الفجر في ربـوع بحمدو
ن يزيـح الدجى ليدني النهـا
سَحَـرٌ يسحر العقول ويصبـي
ويـرد المـنى أخـف وقـا
تتراوى النجـوم فيـه لعينـي
ساهيـات كـأنهـن سكـار
يتهافـتن كلمـا اضطـرب النو
ر كمـا تسقط الغصون الثمـا
سحـر فيـه رقـة وابتسام
بعثـتـه صور السما للعـذار
كـل حسناء حيثما تنفض النو
م تـراه بثغرهـا أنـوا

من وصايا الآباء للأبناء

بقلم الاستاذ الراحل محمود الشرقاوي

وانما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض

لعل أعمق العواطف وأبرها وأكثرها بذلا وتضحية هي عاطفة الوالدين نحو أولادهما . والولد هو كل مولود ذكرا أو أنثى ، ويستطيع كل والد أن يحس ذلك من ذات نفسه .

ونستطيع أن ندرك عمق هذه العاطفة وصدقها من تتبع الآيات القرآنية الكريمة التي تصورها وتتحدث عنها ، خاصة في تلك الآيات التي تسجل قصة ابراهيم ويعقوب وما وصيا به أبناءهما في تلك الآيات من سورة البقرة : **« ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب »** ، وكذلك وصايا لقمان لابنه : **« اذ قال لقمان لابنه وهو يعظه »** في تلك الآيات من سورة لقمان .

وفي الآداب العربية والعالمية نجد وصايا كثيرة وصى بها آباء أبناءهم تتضمن تهذيبهم وتعليمهم كيف يحيون الحياة السعيدة القويمة الناجحة ، وكيف يكسبون محبة الناس واحترامهم وحسن الذكر والأحدوثة في حياتهم وبعد موتهم . وهذه الوصايا – فوق أنها قطع من الأدب الرفيع والعاطفة الحية – تتضمن ثمرات صادقة من تجارب الحياة ، أو كما يقول أبو سعيد المغربي في وصيته لابنه :

خلاصة العمر التي حنكت
في ساعة زفت الى فطنتك
فللتجاريب أمور اذا
طالعتها تشحذ من غفلتك

ومما يتفق مع الفطر السليمة أن نجد في القرآن الكريم وفي كثير من كتب الآداب آيات كثيرة ووصايا توصي الأبناء بالرفق وحسن الرعاية للآباء من مثل قوله تعالى **« ووصّينا الانسان بوالديه حسنا »** في تلك الآيات من سورة العنكبوت ، وتلك الأخرى من سور لقمان والأحقاف والاسراء وغيرها .

بينما لا نكاد نجد من ذلك شيئا يوصي الآباء بالرفق وحسن الرعاية للأبناء ذلك لأن حب الآباء للأبناء وحسن الرعاية لهم مركوز في الفطرة التي خلق الله الناس عليها فلا يحتاج الى تذكير أو وصية .

ومما نلاحظ من مراجعة أدبنا وتاريخنا أن آباءنا العرب كانت أولى وصاياهم وأهمها حين يوصون أبناءهم هي صلة الرحم ، وتثقيف النفس بالشجاعة والأدب والشعر ومعرفة الأيام – أي التاريخ – حتى تنطبع نفوسهم على صفات الشجاعة والبرّ بالأرحام وأداء الواجب .

قال « عمر بن الخطاب » ينصح ابنه : يا بني ، انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فانه من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ولم يغترف أدبا .

ومن وصاياهم أن يصنع الأبناء الخير مع من يقدرون الخير ويعرفون الجميل ويرعون الود ويقابلون المعروف بمثله من الرعاية والحب والتكريم . قال معاوية لإبنه : اتخذ المعروف عند ذوي الأحساب تشتمل به قلوبهم ، وتعظم به في أعينهم وتكفّ عنك عاديتهم .

وحين حضر الموت « ذا الاصبع » الفارس الشاعر الجاهلي دعا بابنه أسيد(١) فقال له : يا بني ، ان أباك قد فني وعاش حتى سئم العيش واني موصيك بما أن حفظته بلغت في قومك ما بلغته ، فاحفظ عني » ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك . وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، واكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ فان لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك ، ثم أنشأ شعرا :

أأسيد ان مالا ملكـ ـت فسربه سيرا جميلا
آخ الكرام ان استطعـ ـت الى اخائهم سبيلا

الى آخر هذا الشعر الجميل الذي كان يغنيه المغنون حفاوة به واعجابا في حضرة الخلفاء والسادة (٢) .

و « قيس بن عاصم بن سنان » ، الشاعر الفارسي المظفر في غزواته ، الذي عاش في الجاهلية والاسلام فساد فيهما ، يتحدث الى أبنائه ، فيقول : اياكم والبغي ، فما بغى قوم قط الا قلّوا وذلوا . قالوا : وكان بعض بنيه يلطمه – أو يظلمه – قومه أو غيرهم ، فينهى أخوته عن أن ينصروه .

وعندما حضرت الوفاة قيس بن عاصم هذا جمع أولاده وقال لهم : يا بني ، اذا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم ، فيسفه الناس كباركم ، وعليكم باصلاح المال فانه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم . واذا مت فادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم . واياكم والمسألة فانها آخر مكاسب العبد ... ثم جمع ثمانين سهما فربطها بوتر ، ثم قال أكسروها ، فلم يستطيعوا ، ثم قال : فرقوا ، ففرقوا ، فقال : أكسروها سهما سهما ، فكسروها فقال : هكذا أنتم في الاجتماع والفرقة ، ثم قال :

انما المجد ما بنى والد الصد ق وأحيا فعاله المولود
وتمام الفضل : الشجاعة والحلـ ـم ، اذا زانه عفاف وجود
وثلاثون ، يا بني – اذا ما جمعتهم في النائبات العهود
كثلاثين من قداح اذا ما شدها للزمان قدح شديد
لم تكسر ، وان تفرقت الأسـ ـهم أودى بجمعها التبديد
وذوو الحلم والأكابر أولى أن يرى منكم لهم تسويد
وعليكم حفظ الأصاغر حتى يبلغ الحنث(٣) الأصغر المجهود

---

(١) أسيد كزبير ، وأسيد كأمير (٢) تجد بقية هذه القصيدة في « الأغاني » (٣) يبلغ الحنث : أي يبلغ مبلغ الرجال .

ومن أشهر الوصايا العربية التي وصى بها أب ابنه تلك الوصية التي يتردد ذكرها كثيرا في أمهات كتب الأدب عن عبد الرحمن ابن أبي عيسى الأنصاري الذي ، قال : عاش « الأوس بن حارثة » دهرا وليس له ولد الا مالك ، وكان لأخيه « الخزرج » خمسة : عمرو ، وعوف ، وجشم ، والحرث ، وكعب ، فلما حضره الموت ، قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزويج في شبابك فلم تتزوج حتى حضرك الموت ، فقال الأوس : لم يهلك هالك ترك مثل « مالك » ... ثم توجه الى ابنه « مالك » بوصيته فقال : يا مالك ، المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد ولا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، وشر شارب المشتف(٤) وأقبح طاعم المقتف(٥) وذهاب البصر خير من كثير النظر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم ، ومن قل ذل ، ومن أمر فل(٦) وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك ، فاذا كان لك فلا تبطر ، واذا كان عليك فاصبر فكلاهما سينحسر فانما تعز من ترى ، ويعزك من لا ترى ، ولو كان الموت يشترى لسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مستوون : الشريف الأبهج ، واللئيم المعلهج(٧) والموت المفيت خير من أن يقال لك : هبيت(٨) . وكيف بالسلامة من ليس له اقامة . وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع الى تلف . حياك الله . قال : فنشر الله من « مالك » بعدد بني « الخزرج » أو نحوهم . وكل فقرة من فقرات هـذه الوصية صارت مثلا يضرب .

أما الصحابي « عمير بن حبيب » فانه أوصى بنيه بمجانبة السفهاء وعدم اللجاج معهم ، لأن من لم يرضه القليل من سفاهتهم سيلقى منهم الكثير . وذكرهم بأن من عرض نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يوطن نفسه على تحمل الأذى انتظارا لثواب الله . قال عمير : اياكم ومخالطة السفهاء فان مجالستهم داء ، وانه من يحلم عن السفيه يسر بحلمه ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير . واذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فليوطن قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عز وجل ، انه من يوقن بالثواب من الله عز وجل لا يجد مس الأذى .

وللأمهات أيضا وصايـا أوصين بهـا أولادهن ، من ذلك ما تحدث به « ابن الأنباري » ورواه « المبرد » في « الكامل » قال : قال « أبان بن تغلب » وكان عابدا من عباد » البصرة : شهدت اعرابية وهي توصي ولدا لها يريد سفرا ، وهي تقول له : آي بني ، أجلس أمنحك وصيتي ، وبالله توفيقك فان الوصية أجدى عليك من كثير عقلك . قال « أبان » فوقفت مستمعا لكلامها ، مستحسنا لوصيتها . فاذا هي تقول : أي بني ، إياك والنميمة فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا ، وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضا الا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته ، واياك والجود بدينك والبخل بمالك ، واذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها ، ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فان المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها . ثم أمسكت . فدنوت منها ، فقلت : بالله يا أعرابية ، ألا زدته في الوصية . فقالت : أوقد أعجبك كلام العرب يا عراقي ؟ قلت : نعم . قالت : والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الى الحلم السخاء فقد أجاد الحلة ريطها وسربالهـا (٩) .

وأما الخليفة « هرون الرشيد » فمن الطبيعي أن تكون وصيته لولده « الأمين » نصيحة ينتفع بها في توطيد حكمه ، واحترام شخصه ، ومهابة ملكه ، وحب رعيته لـه ، على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم . ويقول هرون لابنه : يا بني ، ان الملك والعدل ، أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر . فالملك أس ، والعدل حارس ، والبناء ما لم يكن لـه أس فمهدوم ، والملك ما لم يكن له حارس فضائع . يا بني ، اجعل حديثك مع أهل المراتب وعطيتك لأهل الجهاد ، وبشرك لأهل الدين ، وسرك لمن عناه من ذوي العقول .

ومما وصى به الملوك أبناءهم أيضا تلك الرسالة التي بعث بها الخليفة « عمر بن عبد العزيز » الى ابنه « عبد الملك » . قال : أما بعد ، فان أحق من وعى عني وفهم قولي ، أنت ، وان الله — وله الحمد — فقد أحسن الينا في لطيف أمرنا وجليله ، وعلى الله جل وعز تمام النعمة ، فاذكر يا بني فضل الله عليك وعلى أبيك ، فانك ان استطعت أن تصدق ذلك كله بعمل تعمله أو صلاة أو صوم أو صدقة قبل ذلك منك ، واياك والعز والعظمة والكبرياء فانه من عمل الشيطان ، وهو عدو مضل مبين **(ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم)** . واعلم أن الشباب — الا ما وقى الله ودفع — عون على أمور كثيرة من السوء وفيه لعمري معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله ، فاحذر شبابك ، واياك وان تعلم في قلبك زهوا أو كبرا ، فانه ما لم يكن من ذلك كان خيرا ، واحفظ لسانك ونفسك حفظا ترجو فيه رحمة الله عز وجل ومغفرته ، واذكر صغر أمرك ، وحقارة شأنك ، ولا تبغ فيما أعجبك من نفسك . وكن يا بني على حذر ، فان الشيطان قلما يصيب فرصته بمن احترس منه بدعاء الله جل اسمه ، والتواضع لـه ، وأكثر تحريك لسانك في ليلك ونهارك بذكر الله ، فان أحسن ما وصلت بـه حديثا حسنا ذكر الله

(٤) المشتف : المستقصي . يقال : شرب الشفافة أي البقية التي تبقى في الاناء . (٥) المقتف : التجول (٦) امر : تكبر ، وفل : انهزم ، (٧)
سنة ٩٦٧هـ (١٢) من كبار الصحفيين المعاصرين ، عمل في جريدة المؤيد في نهاية القرن التاسع عشر وأصدر مجلة « الآداب » ومن بعدها جريدة

جل اسمه ، وأحسن ما قطعت به حديثا ذكر الله تبارك وتعالى ، نسأل الله لنا ولك التوفيق والسلام .

وفيما يلي قصة فيها نصيحة أب لابنه ، وقد يصح أن نسميها معاقبة ورسالة من أب لابنه ، وجوابا من هذا الأبن لأبيه ، وقد اخترناها لما فيها من صدق العاطفة وطرافة الحكمة وجيّد الشعر :

قال « المأمون » يوما يحدث أصحابه : أتدرون ما جرى بيني وبين أمير المؤمنين هرون الرشيد ؟ كان اليه ذنب فدخلت مسلما عليه ، فقال لي : أغرب يا أحمق . وانصرفت مغضبا ، ولم أدخل عليه أياما ، فكتب لي رقعة فيها هذا الشعر :

ليت شعري ، وقد تمادى بـك الهـ
ـجر ، أمنك التفريط أم كان مني
ان تكن خنتنا فعنك عفا الله ،
وان كنت خنتكـم فاعـف عني

فسرت اليه ، فقال : ان كان الذنب لنا فقد استغفرناك ، وان كان لك فقد غفرناه . فقلت له : قلت « يا أحمق » ، ولو قلت « يا أرعن » كان أسهل عليّ . قال : فما الفرق بينهما ؟ قلت له : الرعونة تتولّد عن النساء فتلحق الرجل من طول صحبتهن ، فاذا فارقهن وصاحب فحول الرجال زالت عنه . وأما الحمق فانه غريزة :
ويقول الشاعر الحكيم :

وعـلاج الأبدان أيسر خطبـا
حين تعتل مـن علاج العقـول

ونجد فيما رواه صاحب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » وصية جيدة حكيمة من الأمير « المنذر بن عبد الرحمن الأندلسي » ، جرت في محاورة بينه وبين أبيه . قال له أبوه يوما : يا بني ان فيك لتيها مفرطا . فقال له : حق لفرع أنت أصله أن يعلو . فقال له : يا بني ان العيون تمج التياه ، والقلوب تنفر عنه . فقال : يا أبي ، لي من العز والنسب وعلو المكانة والسلطان ما يجمل عن ذلك ، واني لم أر العيون الا مقبلة علي ، ولا الاسماع الا مصغية الي ، وان لهذا السلطان رونقا يرنقه(١٠) التبذل ، وعلوا يخفضه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه الا التيه والانقباض . وان هؤلاء الأنذال لهم ميزان يسبرون به الرجل منا ، فان رأوه راجحا عرفوا له قدر رجاحته ، وان رأوه ناقصا عاملوه بنقصه ، وصيروا تواضعه صغرا وتخضعه خسة . فقال له أبوه : لله أنت ، فابق وما رأيت .

ومن الوصايا الشهيرة في الأدب العربي التي وصى بها « أبو سعيد المغربي » (١١) ابنه عندما أراد السفر ، يحذّره فيها من مداهنة الصديق ، أو الذي يتظاهر بالصداقة ، ويحذره من مقاربة الشر :

كـم من صديق مظهـر نصحـه
وفكـره وقـف على عثرتـك
إيـاك أن تقـربـه انـه
عـون ، مع الدهـر على كربتك
والشر مهما استطعت لا تأتـه
فانـه جـور عـلى مهجتـك

ثم يوصيه بالتواضع والعفة والمظهر الحسن ، وأن يتكلم حين يكون الكلام لازما ، ويصمت حين يكون الخير في الصمت ، وأن يعرف أقدار الرجال ، فيوفي كل انسان حقه دون بخس ولا تفاخر :

وليس يدري أصل ذي غربـة
وانمـا تعرف مـن شيمتـك
وامش الهوينـى مظهـرا عفـة
وابـغ رضا الأعين عـن هيئتك
وانطـق بحيث العـي مستقبح
وأصمت بحيث الخير في صمتك

يا بني ، الذي لا ناصح له مثلي ولا منصوح لي مثله ، قد قدّمت لك في هذا النظم ما أن أخطرته بخاطرك في كل أوان ، رجوت لك حسن العاقبة ان شاء الله تعالى ، وان أخف منه للحفاظ وأعلق بالفكر ، وأحق بالتقديم قول الأول :

يزيـن الغريـب اذا مـا اغترب
ثـلاث : فمنهن حسن الأدب
وثانيـة : حسن أخلاقـه
وثالثـة : اجتـناب الرّيـب

• • •

أما في العصر الحديث فان أصدق من نعرف من ذلك وأعظمه افادة وعمقا تلك الرسائل التي كتبها الزعيم الهندي « نهرو » الى ابنته «أنديرا » التي وليت رئاسة الحكومة الهندية بعد كفاح طويل ، وقد بعث بها « نهرو » الى ابنته وهو في السجن ، وكانت هي في سن الثالثة عشرة . وفي هذه الرسائل ثروة كبيرة من العلم والأدب والتاريخ وسير العظماء ، وقد ترجمت كلها أو بعضها الى اللغة العربية أكثر من مرة . وكانت واحدة من تراجمها للدكتور « عبد العزيز عتيق » ، والأخرى للأستاذ « أحمد بهاء الدين » .

ومن الرسائل المعاصرة ذات القيمة تلك التي بعث بها الكاتب الصحفي أحمد حافظ عوض(١٢) الى ابنه الذي كان يطلب العلم في أوربا ، وطبعت في سنة ١٩٢٦ بالقاهرة ، ولقيت عند صدورها تقديرا كبيرا من النقاد والمفكرين . وهي رسائل وصفها صاحبها بأنها « في التربية والتعليم والآداب » .

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن « الآباء والأبناء » تلك الكلمة الحكيمة التي نجدها « لابن المقفع » في كتابه « الأدب الصغير » : « ان أفضل ما يورث الآباء الأبناء : الثناء الحسن والأدب النافع والأخوان الصالحون » ■

محمود الشرقاوي — القاهرة

الى رحمة اللـه

انتقل الى رحمة الله تعالى الكاتب الكبير الاستاذ عبدالرحمن صدقي ، وهو من كتاب القافلة البرزة ، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته .

في الدناءة واللؤم ، (٨) الهبيت : الجبان . (٩) أي بلغ الغاية في مكارم الأخلاق . (١٠) يرنقه : يعكره ويشينه . (١١) توفى
، التي كانت من كبريات الصحف العربية ، وكان عضوا في مجلس الشيوخ المصري وعضوا في « مجمع فؤاد الأول » للغة العربية . ولد في سنة ١٨٧٧ ومات ١٩٥٠م .

البعوث العلمية في عصر الدولة العباسية

بقلم الاستاذ حسن فتح الباب

كانت الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين في العصر الوسيط . فقد امتدت رقعة الاسلام من أطراف الصين شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ، كما امتدت أرجاؤها شمالا وجنوبا . وكانت الامبراطورية البيزنطية آنذاك تبسط ظلها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وايطاليا . ولم تكن الحروب هي العلاقة الوحيدة القائمة بين هاتين القوتين الكبيرتين ، بل نشأت بينهما في كثير من الأوقات علاقات مودة وسلام وفقا لمصالحهما التجارية ولمقتضيات التوازن الدولي .

ولم تستمر سياسة الفتوح في العصر العباسي كما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، فلم تتسع رقعة الدولة الاسلامية ، بل بدأت الحركات الانفصالية تعتريها في أواخر هذا العهد ، فكانت في حاجة الى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها الى الاستمرار في الفتح . ومن ثم كان أكثر حروب العباسيين ضد البيزنطيين وغيرهم في العام الأول من عهدهم دفاعا عن دولتهم ، وكانت تلك الحروب هي الجانب السلبي للعلاقات السياسية . أما في الجانب الآخر فقد اهتم العباسيون أكثر من الأمويين بتوسيع دائرة علاقاتهم الخارجية السلمية .

بعوث الى مختلف أرجاء العالم

وانطلاقا من هذه السياسة سارت البعثات الدبلوماسية بين خلفاء بني العباس وبين ملوك القسطنطينية وروما ومملكة البلغار ودولة الفرنجة والهند والصين ، وعقدت بيزنطة مع بغداد معاهدات الصلح وتبادل الأسرى في عهد هارون الرشيد والمأمون والمعتصم ، وتبادلت معها البعثات في مختلف الأغراض الرامية الى توثيق الصلات التجارية ، وتبادل الأسرى وفض المنازعات ، وعقد المعاهدات . وكان دعم الروابط العلمية والثقافية من أهم ما استهدفته السفارات الاسلامية من أجل تعزيز علاقاتها مع جاراتها ، مما يشبه المهمة التي يقوم بها الملحقون الثقافيون في سفارات الدول الحديثة اليوم .

وهكذا اقترن عصر استقرار الدولة الاسلامية وازدهارها واتساع نفوذها وترامي أطرافها بازدهار البعوث العلمية بينها وبين الدولة البيزنطية . فتبادل الجانبان الكتب أو الرسائل التي كانت تصاغ في أساليب ودية ، ثم دخلا في مفاوضات أسفرت عن معاهدات لاقرار التبادل العلمي والثقافي . وكانت تلك المعاهدات تنص على دراسة الكتب النادرة التي تتوافر لدى الجانبين أو في مكتباتهما العامة ، وتبادل البعثات ، وتيسير مهام الطلاب والباحثين في جامعات المسلمين والبيزنطيين وفي عواصمهم .

العصر الذهبي للثقافة

ولا غرو أن يطلق على عصر هارون الرشيد والمأمون العصر الذهبي للثقافة والفكر ، وأن تبلغ فيه البعوث الثقافية غاية ما بلغته طوال العصور الاسلامية . ولقد كان عصر الاحياء العلمي بحق ، لأنه العهد الذي ارتفعت فيه أعلام الدول الاسلامية على كثير من أقطار العالم الغنية بالموارد ، وساد فيه السلام الاسلامي مشارق الأرض ومغاربها . فقد امتدت حركة الترجمة التي بدأها الأمويون الى جميع فروع العلم والمعرفة . ولم يألُ العباسيون جهدا في استقائها من مصادرها الأصلية والبحث عنها في منابتها القاصية .

حرية الفكر عند المسلمين

وقد تأصلت حركة الترجمة بفضل حركة الفكر التي اعتنقها المسلمون والتي كانت ديدنهم في معاملاتهم مع غيرهم . فلا تمييز بين البشر بسبب العنصر أو اللون ، وانما عدالة ومساواة تظل الجميع في اطار الشريعة الاسلامية . ولا مراء في أن علماء أوربا في العصر الوسيط أخذوا حرية الفكر عن المسلمين ، فكانت التربية الصالحة لنماء بذور الحضارة الغربية . ولولاها لما استطاعوا أن ينتزعوا راية العلم من رجال الكنيسة المتعصبين ، ويطهروا عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة . كما أخذوا عن المسلمين دقة البحث العلمي فتمكنوا من تحقيق كشوفهم العلمية .

وفي ذلك يقول العلامة الاجتماعي جوستاف لوبون : « أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » ، ونجد مصداقا لهذه الحرية فيما قرره « درابر » أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة الأمريكيين : « ان المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيرا من الأعمال الجسام ، ورقوهم الى أعلى المناصب في الدولة ، حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة « يوحنا بن ماسويه » . وكانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النصارى تارة والى اليهود تارة أخرى . ولم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة » .

حوافز البحث العلمي

لقد بلغ اهتمام العباسيين بالثقافة حدا لم يسبق له مثيل في تاريخ النهضات العلمية ، اذ كانوا يعدون العلم مقوما رئيسيا لبناء الدولة والمجتمع . وقد شمل هذا الاهتمام العلوم الدينية والدنيوية على السواء ، فشجعوا على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية من مختلف اللغات ، ولم يضنوا في سبيل الترجمة والتأليف بجهد أو مال حتى يحيطوا علما بجميع ثمار الفكر البشري سواء

التاريخي منها أو العصري . ومن ذلك ما أثر عن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي من أنه شجع « مالك بن أنس » على تأليف «الموطأ» ، كما شجع العلماء على التأليف في العلوم والفنون . ثم أغرى المترجمين من السريان والفرس بالمال الجم لينقلوا من الفارسية والسريانية واليونانية الى العربية فنون الطب والهندسة والفلك . وكان هو نفسه ممارسا علوم الفلك ، بارعا فيها .

العواصم الاسلامية مراكز قيادية للعلم

وتحفل كتب التاريخ بكثير من الشواهد الأخرى على اهتمام العباسيين بحركتي الاحياء العلمي والنهضة الفكرية حتى صارت كل من بغداد والبصرة والكوفة مراكز قيادة ومصادر اشعاع للتيارات العلمية والفكرية ، يتزاحم عليها أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان ، لينهلوا من مواردها الغزيرة . وكان عماد تلك الحركة جمع الكتب والمصنفات من خزائنها في الدول المجاورة لتحصيل ما احتوته من كنوز علمية واستيعاب ما فصلته من نظم في السياسة والحكم والفلسفة والأدب وعلم الطب والطبيعة والفلك والهندسة وغيرها ، والافادة بها في تطوير أجهزة الحكم الاسلامي . ولتحقيق هذا الغرض سارت البعثات العلمية الاسلامية الى بيزنطة ، وقامت بزيارة مكتبات القسطنطينية لاستخراج الكتب النادرة التي يحتاج اليها المسلمون في دراساتهم النظرية والفلسفية أو تجاربهم الكيماوية والطبية على السواء وترجمتها .

بعوث المأمون لاقتناء الكتب النادرة

ومن تلك البعوث ما أوفده الخليفة العباسي المنصور الى القسطنطينية ، حيث عاد العلماء ومعهم مختارات من الكتب والمصنفات النادرة كان من بينها كتاب « اقليدس » . وجاء في كتاب « الفهرس » لابن النديم ، أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في البحث عما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم ، فأجابه ملك الروم الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم « الحجاج بن مطر » و « ابن البطريق » و « مسلم » صاحب « بيت الحكمة » وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه ، أمرهم بنقله وترجمته فنقل ، وقد قيل أن « يوحنا بن ماسويه » ممن نفذ الى بلاد الروم .

صلح دائم لقاء مكتبة من القسطنطينية

وكان المأمون ينتهج جميع السبل الدبلوماسية لتحقيق بغيته ، فوثق علاقاته بملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الثمينة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم . وليس أدل على جهود المأمون في هذا الميدان من تلك الواقعة التاريخية التي تؤكد نظرته الى الثقافة على أنها ركن من أركان الدولة ودعامة من دعائم السلام الاسلامي ، وليست مجرد ترف عقلي ، اذ كان من شروط صلحه مع الأمبراطور البيزنطي « ميخائيل » الثالث أن يعطيه مكتبة من مكتبات الآستانة ، فكان ذلك ، ووجد فيها كتاب « بطليموس » في الرياضة الفلكية ، فأمر بترجمته ، وسماه « المجسطي » .

بيت الحكمة في بغداد

ومن مآثر المأمون في ميدان البحث العلمي أنه أنشأ سنة ٢١٥هـ (٨٢٠م) بيت الحكمة في بغداد ، وجمع في هذه المكتبة آلاف المخطوطات المترجمة عن الحضارات الانسانية القديمة التي ورثها المسلمون ، والمؤلفة من قبل الأدباء والعلماء العرب في شتى العلوم والفنون . وقد قصد الباحثون والدارسون هذه الدار من مختلف الأمصار الاسلامية يأخذون عنها وينهلون منها . وبذلك انتقل العلم من الرواية الى التأليف ، ومن المشافهة والاستماع الى البحث والاستقصاء . وازدهر الانتاج الفكري نتيجة لذلك في أرجاء الوطن العربي في شتى مناحي العلم والمعرفة .

وكان الخلفاء العباسيون والأباطرة البيزنطيون يتنافسون في انتزاع فضل السبق العلمي في عصريهما ، ولا يألون جهدا في هذا السبيل . من ذلك أن الخليفة المأمون ومعاصره الأمبراطور « تيوفيل » كانا مغرمين بالشعر وروايته ، ويهتمان بالمسائل الدينية . ولهذا عمل كل منهما على تتبع نشاط الآخر في هذه الشئون وغيرها من المسائل العلمية كي يفوز عليه ويسبق بأمته دونه .

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد تلك البعوث المتعددة والمفاوضات المتكررة التي دارت بين الأمبراطور « تيوفيل » والخليفة المأمون في شأن العالم الفلكي المهندس « ليو — Leo » . وكان الخليفة المأمون يتوق الى حضور هذا العالم الذائع الصيت الى بغداد لفترة من الزمن للاستفادة من علمه الواسع في الرياضيات . فأرسل الى الأمبراطور البيزنطي بعثة خاصة من أجل ذلك ، وقال في رسالته الشخصية اليه أنه يعتبر ذلك عملا وديا . ووصل الأمر الى حد أن عرض عليه صلحا دائما وألفي قطعة ذهبية في مقابل حضور هذا العلامة اليه . ولكن « تيوفيل » لم يستجب لعرض المأمون ، لأن أبحاث « ليو » كانت تتعلق في شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية . وحين نذكر قوة الدولة الاسلامية في عهد المأمون وسعي الدولة البيزنطية الى خطب ودها والدخول معها في علاقات طيبة ندرك مبلغ سخاء هذا العرض من جانب المأمون ، ومدى حرص « تيوفيل » على منافسة الخليفة في البحث العلمي .

العلم دعامة أساسية للدولة الاسلامية

وتتجلى تلك النزعة العلمية التي تعد احدى العلامات الواضحة المميزة للنهج الذي كان يسير عليه الحكم خلال عهود بني العباس ، والتي تؤكد اعتدادهم بالعلم كدعامة أساسية من دعائم دولتهم ، وركيزة للاسلام في الأرض ، وعامل قوي لامتداد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم ، تتجلى هذه النزعة في اهتمامهم البالغ بالعلوم الفلكية . ولعل في هذا الاهتمام وفيما وصلت اليه مختلف العلوم في عصرهم من نهضة مجيدة ما يشهد باستقرار دولتهم وعلو كعبهم في هذا المضمار ، وتفوقهم العلمي الذي مكّن لهم من بسط سيادتهم على كثير من أصقاع الأرض .

وقد سلك ذلك الاهتمام سبيل البعوث العلمية في مختلف فروع المعرفة ، فأكثروا من إيفاد السفارات الى القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية ، لتزويدهم بالنظريات المستحدثة في الميادين العلمية . وكانت علوم الفلك والرياضيات عند المسلمين في بدء ازدهارها بحاجة الى الافادة مما بلغه البيزنطيون من تقدم في هذا المضمار ، فبعث الخلفاء العباسيون بكتبهم ورسلهم الى أباطرة القسطنطينية سعيا الى عقد الاتفاقات الخاصة باستقبال البعثات العلمية الاسلامية الموفدة لديهم والعمل على تحقيق أغراضها .

كما نشأت السفارات العلمية بين الدولتين ، الاسلامية والبيزنطية ، مما ساعد على استمرار التعاون في تحقيق المصالح المشتركة فيما بينهما .

ولا ريب في أن العرض السخي الذي اقترحه المأمون على الامبراطور « تيوفيل » بشأن دعوة العالم « ليو » ، لينهض دليلا قويا على ادراك

الخلفاء المسلمين لأهمية البعوث العلمية في دعم دولتهم وتوطيد أركانها ، وتوفير أسباب الأمن والاستقرار لها .

هذا وقد تجاوزت البعوث العلمية الاسلامية الى بيزنطة هذا الغرض الذي يتمثل في طلب المصنفات القيمة ودعوة العلماء الى غرض علمي آخر ، وهو دراسة الأماكن التاريخية والمواقع الأثرية التي تتعلق بأحداث الاسلام ، أو بما ورد ذكره في القرآن الكريم ومن ذلك بعثة العالم العربي ، المشهور « محمد بن موسى » الذي بعث به الخليفة العباسي الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧م) الى « أفسوس » بآسيا الصغرى من بلاد الروم لزيارة الكهف الذي يقال أن فيه رفات الفتية الذين استشهدوا أيام الامبراطور « اقلديانوس »(١) والذين ورد ذكرهم في القرآن الحكيم في سورة الكهف : « **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا** » .. ..الآيات.

وقد منح الامبراطور البيزنطي « ميخائيل » الثالث البعثة الاسلامية تفويضا خاصا لزيارة الكهف ، وبعث معها دليلا خاصا لإرشادها في تجوالها . وقد وصف سفير الخليفة مشاهداته وانطباعاته عن أهل الكهف ، فقال :

« عندما وصلنا الى المدينة شاهدنا جبلا يوٌدي الى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم — اللوح الذي رقمت فيه أسماوٌهم بعد موتهم — ، فبدأنا بصعود الجبل الى ذروته ، فاذا بئر محفورة لها سعة ، وتبينا الماء في مقرها ، ثم نزلنا الى باب السرداب ، فمشينا مقدار ثلاثمائة خطوة ، فصرنا الى الموضع الذي أشرفنا عليه ، فاذا رواق في الجبل .. وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة ، عليه باب حجر منقور ، فيه الموتى ، ورجل موكل بحفظهم . واذا هو يحيد عن أن نراهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم !! فقلت له : دعني أنظر اليهم وأنت بريء . فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي . فنظرت اليهم في مسوح تتفرك في اليد . واذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها واذا جلودهم لاصقة بعظامهم » .

كما نظم الخليفة الواثق بعثة كبيرة يرأسها أحد كبار مترجمي الدولة لاكتشاف السور الذي بناه الاسكندر ذو القرنين ، وتقول الرواية أنه سد(٢) بين الروم وبين يأجوج ومأجوج الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم :

« **حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا** » .. الخ .

وقد دامت البعثة التي أوفدها الواثق ثمانية وعشرين شهرا . فلما عاد أعضاوٌها كافأهم الخليفة على ما حصلوا عليه من بيانات .

وهكذا نجد أن النهضة العلمية والثقافية في عصر الدولة العباسية ، قد تركزت بحق عند المسلمين نتيجة تقديرهم لرسالة الفكر ، وحرصهم الكبير على البحث عن التراث الثقافي الانساني ، وارتياد آفاقه كشفا عن جديد أو تحقيقا لقديم . وما أشبه هذه البعوث العلمية التي أوفدها العلماء العباسيون للكشف عن الآثار التاريخية ودراستها بتلك التي نشهدها في عصرنا الراهن في سبيل انقاذ الآثار ومعالمها وذلك حفاظا على التراث الحضاري الذي يقرب بين الحضارات والقيم وأنماط السلوك البشري ، فيوحد بين الشعوب في المجال الفكري ، اذ تتعاون الهيئات الدولية والوطنية في سبيل الحفاظ على هذه الآثار التاريخية وحمايتها من الضياع .

وخلاصة القول أن خلفاء بني العباس قد بلغوا الذروة في التوسع والانتشار بفضل النهضة الفكرية التي رويت بذورها في عهد بني أمية وبدأت توٌتي ثمارها في العهد العباسي ، فاذا بالطاقات العربية الزاخرة التي حملت رسالة الاسلام قبل بضعة قرون تتفجر مرة أخرى في شكل جديد يمثل نتاجا حضاريا ضخما يصل الحضارات الأولى التي قامت على ضفاف النيل وما بين النهرين وجنوب الجزيرة العربية ، الحضارات اليونانية والهندية والفارسية بالحضارة الاسلامية في العصر العباسي ، والتي مهدت فيما بعد لقيام النهضة الأوروبية ■

حسن فتح الباب — القاهرة

---

(١) اوى هوٌلاء الفتيان الى مغارة في الجبل ، وجعلوها مأوى لهم ، فرارا بدينهم من الشرك والمشركين الذين اضطهدوهم ويعلق الخبراء على ذلك بأن التاريخ القديم يشير الى وقوع اضطهادات دينية في الشرق القديم ، حدثت في أوقات مختلفة ، أبرزها اضطهادان ، حدث الأول منهما في عهد الملك السلوقي « انتيخوس » الرابع الملقب بـ « نابيفانيس » ، (حوالي ١٧٦—٨٤ ق.م.) ، فانه لما اعتلى عرش سوريا وكان مولعا أشد الولوع بالثقافة الأغريقية وحضارتها ، فرض على اليهود بفلسطين — وكانت في قبضة سوريا منذ سنة ١٩٨ ق.م. — التدين بديانة الأغريق وأبطل شريعتهم .

فاذا افترضنا ظهور هوٌلاء الفتية في ذلك العهد يرجح كونهم من اليهود ويكون مكانهم في فلسطين عامة أو في أورشليم ذاتها ، ويكونون قد بعثوا حوالي عام ١٢٦م ابان حكم الروم للشرق ، أي قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم (حوالي ٥٧١م) بأربعمائة وخمسة وأربعين عاما تقريبا .

أما الاضطهاد الثاني فقد حدث في عهد الامبراطور الروماني « هادريانوس » (١١٧—١٣٨م) الذي فعل باليهود مثل ما فعل « أنتيخوس » السالف الذكر تماما .

وفي ضوء هذه الحادثة يبدو أن هوٌلاء الفتية يهود ، ويكون مكانهم في أي مكان في الشرق القديم أو في أورشليم نفسها ، ويكون قد بعثوا حوالي عام ٤٣٥م ، أي قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بمائة وثلاثين عاما .

ويبدو أن الاضطهاد الأول أكثر تلاوٌما مع أصحاب الكهف ، لأنه كان أشد قوة .

على أن رواية العالم الاسلامي محمد بن موسى ، التي أوردناها في متن هذا البحث ، تختلف مع هذا الرأي ، اذ موٌداها أن الأمبراطور الروماني « أقلديانوس » هو الذي اضطهد الفتيان ، وأن الكهف في آسيا الصغرى وهو فتحة متسعة في الجبل ، متجهة الى الشمال يجيئهم فيها النسيم العليل واذا طلعت الشمس من الشرق عن يمينهم مالت أشعتها عنهم ، واذا غربت عن يسارهم تجاوزتهم ولم تدخل أشعتها في كهفهم ، فحرارة الشمس لا توٌذيهم ، ونسيم الهواء يأتيهم . وقد مكث أهل الكهف نياما ثلثمائة سنة زادت تسعا .

وتشير الآية الكريمة الى حقيقة فلكية وهي أن ثلثمائة سنة شمسية تقابلها ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية ، وقد سبقت الآية علم الفلك .

(٢) كان السد بين جبلين هما : أذربيجان وأرمينية . وقيل هما جبلان في أواخر الشمال منقطع أرض التركستان .

تعقيب على

نقد كتاب « المجاز بين اليمامة والحجاز »

بقلم الاستاذ عبد الله بن محمد بن خميس

في عدد صفر ١٣٩٢ من قافلة الزيت ، كتب الأستاذ عبد القدوس الانصاري بحثا تحليليا عن كتابنا « المجاز .. بين اليمامة والحجاز » . ولقد أضفى على الكتاب ثناء كثيرا وقرضه تقريضا منصفا يليق به بحكم انه من أرباب البحث والنقد في هذه البلاد ، ومن الذين أبلوا بلاء حسنا في خدمة العلم والأدب ووهبوا أنفسهم في سبيلهما .

والى جانب ثنائه على كتابنا وتقريضه فقد عنت له ملاحظات ووقفات نبه عليها بلطف ولفت نظر القراء اليها ، ومعظمها اجتهاد منه وتحر للحقيقة . وانني اذ أشكره على ثنائه وعلى ملاحظاته وأحمد له جهاده المتواصل في سبيل العلم ، أجدني ملزما بتنبيهه الى بعض ما نسيه أو غاب عنه حول ملاحظاته ووقفاته .. والقضية لا تخرج عن حيز البحث العلمي الهادف الذي يدعو اليه كما يدعو اليه كل مخلص للعلم همه الوصول الى الحقيقة ليس الا .

• لاحظ الأستاذ الانصاري ما جاء في هذه العبارة : « ونشير الى ما وقع فيه أو حوله من أحداث أو قصص أو آيات قرآنية أو أحاديث نبوية » وقال : أرى فيه شيئا ، ذلك لأن القرآن والأحاديث النبوية لا تقع وانما الآيات تنزل والأحاديث تقال وتروى .

وأظن أن مثل هذا الأسلوب المطرد في قمة البيان العربي لا يعزب عن ذهن الأستاذ الانصاري ، ولا يستطيع أن يرد شواهده ، أو يماحك فيها ، وليس بعد القرآن الكريم مذهب لمبتغي بلاغة القول وسمو تعبيره ، فها هو يقول : « **يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا** » . ها هو يقول : وامسحو برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين . فالرؤوس مجرورة بالباء ، والأرجل منصوبة . ولو كانت الأرجل مجرورة عطفا على الرؤوس لتغير الحكم الشرعي حسب هذا المفهوم ، كما تهيأ لإحدى الفرق الاسلامية الشاذة التي تمسح أرجلها في الوضوء بدلا من غسلها .

فالقضية قضية حذف وتقدير ، وللنحاة أقوال حول ذلك ، كما للبلاغيين أقوال في الفصل والوصل حول ذلك أيضا .. لا شك أن القرآن الكريم ينزل ، وان الأحاديث تقال وتروى ، وذلك أمر لا يخفى على أحد ولكن التلوين في الأساليب ، ولو بالحذف والتقدير ، مطلب من مطالب البلاغة ، ومقصد من مقاصد الفصحاء ؟ والآية القرآنية المتقدمة تفسيرها هكذا ، وامسحوا برؤوسكم « واغسلوا » أرجلكم الى الكعبين : وقد حذف الفعل « اغسلوا » لمقصد بلاغي سام .. والشواهد على هذا من القرآن وغيره كثيرة .

• أفاض الأستاذ الانصاري افاضة مسهبة في ذكر طرق البصرة والكوفة واليمامة قديما الى مكة ، وأورد أقوال العلماء فيها ، وما ورد بها من أشعار ، وعلل التسمية لكل طريق ..

ولا ضير أن يخص الأستاذ عبد القدوس هذا الموضوع ببحث يوفيه حقه بالدراسة والتحقيق .. لكن الذي يلفت النظر هو أن يسهب في ذكر هذه الطرق هذا الاسهاب في نقده « للمجاز » ، مع أن المجاز في واد وهذه الطرق في واد آخر ، واذا قلنا أن الطريق الأول بين اليمامة والحجاز يمت الى « المجاز » ببعض صلة فما شأن طريق البصرة والكوفة وسائر العراق ؟ ان هذه الطرق معروفة تماما ، ومعروفة أيضا طرق أخرى غيرها تؤدي الى الحجاز نبهنا على بعضها في مقدمة « المجاز » كشاهد على عناية العلماء بهذه الطرق .. ولكنا لم نرد أن نقحمها في كتابنا « المجاز » تلافيا للاستطرادات التي تنأى بالموضوع عن دائرة البحث .

إن طريق اليمامة — الحجاز المسمى « بالمنكدر » والذي تسلكه القوافل وتذرعه الابل جيئة وذهابا ، لا يلتقي مع طريق السيارات الذي هو طريق « المجاز » وليس له به صلة لكي نبحثه ونفيض في ذكره .. ثم هو أيضا ليس على سمت واحد وخط مستقيم يؤدي الى الحجاز من أقرب نقطة . لا ، بل هو طريق ابل ، يبحث عن مناهل الماء للشرب والتزود منها ، ويبحث أيضا عن مأمن الطريق من غارات اللصوص واعتداءات الاعراب ، ويبحث ثالثا عن الطريق العامة يعانقها لتلافي مخاوف الطريق المتقدمة ، فترى المنكدر حينما يخرج من « طويق » مع ثنية « الاحيسي » يتجه نحو كثيب « الغزيز » فكثيب « السر » فشمالي « عرض ابني شمام » ثم يتجه مشملا لكي يلاقي طريق « البصرة » عند « حمى ضرية » أو قبله مما يلي « بركة طخفة » وهكذا حتى يصل الحجاز ، **فهو لا يلتقي مع طريقنا** « المجاز » أبدا .

ومثل استطراد الأستاذ الانصاري عن هذه الطرق استطراده عن شعب « وبرة » وتعليل التسمية وما يشاركه فيها وذكر حرار الحجاز بهذه المناسبة ..

• وقال الاستاذ الانصاري : ذكر المؤلف « عريق البلدان » في « المجاز » لضبة ولعمرو بن تميم .. قال : وبودنا لو ذكر لمن هو له الآن وصلا للحاضر بالماضي ..

لقد كانت الجزيرة العربية تتنازعها القبلية وتتقاسم مناهلها ورقاع أرضها ، أما الآن فقد انكمشت هذه الظاهرة بحمد الله وأصبح كثير من الأمكنة مشاعا بين سكان الجزيرة كل يرعى ويشرب وينزل حيث طاب له المكان .. وعريق البلدان الآن شأنه كذلك ليس لقبيلة بعينها ولا لبلد بعينه ومثله كثير مما لا داعي للتنبيه عليه كما ذكرتم .

• وعن بلدة « مرأة » قال الأستاذ الانصاري : « ذكر المؤلف « مرأة » وغلّط من يكتبها بالتاء المفتوحة ، ويبدو لي (الكلام للانصاري) أن كل ما يكتب بالتاء المربوطة يصح أن يكتب بالتاء المفتوحة . **وأصل ذلك**

ومستنده اعادة كتابتها باحدى الحالتين الى حالة نطق العرب بها في الوقف عليها .. فمن العرب من يقف عليها بالهاء ، ومنهم من يقف عليها بالتاء .. ففي مراعاتنا لمن يقف عليها منهم بالهاء نكتبها بالتاء المربوطة ، وفي حالة ملاحظتنا لمن يقف عليها منهم بالتاء نكتبها ان شئنا بالتاء المفتوحة ، ولا ضير علينا من ذلك .. وبطبيعة الحال تنجر هذه القاعدة على « مرأة » وفاطمة وعائشة وطلحة.. » .

وقصة تاء « مرأة » سبق لي مع الأستاذ الانصاري جولات حولها حينما نقدت كتابه « رحلة الرياض » وأخذت عليه كتابة « مرأة » بالتاء المفتوحة . وأرى اجابة على نقده هنا تسجيل ما سبق أن عقبت به على تعقيبه ، ولعل فيه كفاية .. قلت في تعقيبي ذلك : « تقول كتب اللغة ، ومعاجم الأمكنة ، ودواوين الشعر .. تقول هذه بأجمعها : ان « مرأة » – البلدة – تكتب بالتاء المربوطة .. ويشاء ذوق مرقم اللوحات المثبتة على الطريق ما بين الرياض ومراة أن يكتبها بالتاء المفتوحة ، ثم يأتي الأستاذ الانصاري فيتابعه على بدعته . ولما جاء النقد وأوضح وجه الحقيقة جاء الأستاذ الانصاري ليقول : « ان (مرأت) دونت تارة بالتاء المربوطة كما تراه وتارة بالتاء المفتوحة استنادا الى قول الرضي في الشافية : فمن ثم جاز الى الروم والاشمام عند من يقف على التاء بلا قلب كقوله «كظهر الحجفت » ، والى قوله أيضا عن أبي الخطاب : ان أناسا من العرب يقفون على الأسمية ، أي التاء التي في آخر الاسم مثل « فاطمة » و « مرأة » ، بالتاء نفسها ، وأستشهد بقول الشاعر :

الله أنجـــاك بكفـــي مسلمت ... من بعد ما وبعد ما وبعد مت
صارت نفوس القوم عند الغلصمت ... وكادت الحـرة أن تدعى أمت

ثم أورد الأستاذ الانصاري قصة رسم كلمة التابوت عند تدوين القرآن الكريم واختلاف الكتاب كيف ترسم هل بالتاء المربوطة أم المفتوحة .. وأمر عمر أن تكتب بالتاء المفتوحة . أورد ذلك استئناسا .. ونقول :

أولا : لا يوجد مرجع واحد معتبر كتب « مرأة » – البلدة – بالتاء المفتوحة .

ثانيا : اذا ورد في لهجة من لهجات العرب الشاذة أو المهجورة ما يبرر الخطأ فلا يصح أن نلجأ اليه ، اذ على هذا يصح أن ننصب الفاعل ونرفع المفعول ، ونقول لمن يريد أن يلحننا : لقد جاء في لغة العرب « خرق الثوب المسمار » ، برفع الثوب ونصب المسمار . وعلى هذا أيضا يصح أن نتبع الفعل بفاعلين – لغة البراغيث – ثم نأتي بلغة الكشكشة ، والكسكسة ، والشنشنة ، والعنعنة ، والفحفحة ، والعجعجة ، والاستنطاء ، والتلتلة ، واللخلخانية ، والطمطمانية .. الى آخر ذلك .

ثالثا : هذه اللغة أو اللهجة التي تبدل هاء التأنيث تاء في الوقف .. لم تنسب الى قبيلة أصيلة فيما نعلم .

رابعا : ان هذه اللهجة خاصة بابدال الهاء تاء في الوقف فقط ، ولكن هذا لا ينطبق وما جاء في كتابة الأستاذ الانصاري لبلدة « مراة » أكثر من مرة ، وأكثر من سياق ؟؟ فمثلا قال : « مرات بلدة جميلة » « وفي مرات فرع لبلدية شقراء » ولا يجوز الوقف طبعا في مثل هذه الصيغ وفي غيرها مما ذكرها الأستاذ في سياق « مراة » ؟

ان ما استدل به الأستاذ الانصاري كله شعره ونثره لتبرير هذا الخطأ هو في الوقف فقط . ولكن الأستاذ الانصاري لم يلتزم كتابــة « مراة » بالتاء المربوطة في الدرج والمفتوحة في الوقف من أجل المحافظة على هذه القاعدة .

خامسا : استئناس الأستاذ الانصاري بقصة كتابة « التابوت » غير وارد ، لأن التابوت ذاته بـه لغتان لغة التاء المربوطة ولغة التاء المفتوحة وهي لغة قريش .. فهل بمجرد أن نجد اسما في العربية بـه لغتان أو أكثر نطرده في سائر الألفاظ المماثلة ونقيس عليه ؟؟

• لاحظ الأستاذ الانصاري أن تسمية الشعر النبطي بالشعر الشعبي منسوب الى الشعب العربي ، والشعب العربي فيه طبقات مثقفة ولا يصح لنا أن نتناسى وننسب هذا الشعر الملحون الى الشعب العربي بما فيه هذه الطبقة .. هذا هو معنى كلام الأستاذ الانصاري .

والعرب اصطلحوا على أن يسموا السواد الأعظم بمختلف طبقاته شعبا وعلى أن يضيفوا اليه كل شيء يتصل به وكل شيء ينتهجه أكثر فيقال مساكن شعبية وفنادق شعبية ومقاه شعبية وملابس شعبية .. الخ . وهذا لا يمنع من أن يكون من بين طبقات هؤلاء في مساكنهم وفنادقهم ومقاهيهم وملابسهم مثقفون وانماط من الطبقات الأخرى . ولو طردنا ما يقوله الأستاذ لاقتضانا الأمر أن نغير ما اصطلح عليه العرب من هذه المسميات والمصطلحات وأضفناها كلها للعامية بدلا من الشعبية .. ولقد اصطلح العرب هذا الاصطلاح « ولا مشاحة في الاصطلاح » وأقـره مثقفو الأمة العربية وسائر طبقاتها وهو لم يخالف لغة ولا يغير معنى ، فلماذا نقول بعدم صحته ؟

• عند تحديد الطريق لاحظ الأستاذ الانصاري أنني لم أحدده بأحد المقاييس المعتبرة كالميل أو الكيل مثلا أو غير ذلك .. واستطرد استطرادا مطولا ، وجاء بذكر كتب الرحلات والرحالين وفصل في تفاوتهم في تحديد مسافات الطرق وما بين أعلامها .

والواقع اني لم أحدد المسافات في كتابي (المجاز) لأمور :

أولا : ان النصب المقامة الآن على حافة هذا الطريق غير منتظمة ولا مرتبة ولا معتنى بها من أجل أن نعتمد عليها ونضع بموجبها مقاييس تعيش عبر الأجيال فأكثرها حينما يقتلعه ما يقتلعه ينتهي ولم يعد يلتفت اليه ملتفت ، ومن أجل ذلك لا تجد المسافر يعتمد على هذه النصب قطعيا .. فكيف يعتمد عليها مؤلف كتاب ؟

ثانيا : لو أخذت المسافة بمقياس السيارة من محطة الى محطة لكان ذلك أيضا عرضة للاختلاف والأشكال ، فهذه السيارة تقيس بالميل ، وهذه تقيس بالكيل ، وهذه تخرج عن الطريق هنا أو هنالك لأمر ثم تعود بعد أن اختل المقياس بزيادة طرأت لا يعرف مقدارها ، وهكذا .

ثالثا : رؤية العلم الذي سوف أتحدث عنه نسبية فمن الناس حديد البصر سوف يراه من مسافات بعيدة ومنهم متوسط النظر ومنهم دون ذلك .. فعند أي كيل مثلا سوف أحدد رؤية هذا العلم ؟ هل أحدده بالنسبة لحديد البصر أو لمن دونه ، أو لمن دونه وبالطبـع سوف لا يكون التحديد واقعيا .

رابعا : سوف تكون أحيانا في مرتفع ترى فيه عشرات الأعلام وأحيانا في منخفض لا ترى الا القليل أو لا ترى شيئا ، فعلى أي الحالتين تحدد مكان العلم .

خامسا : الطريق عرضة في بعض أجزائه للتغيير والتبديل ، فهذه زاوية حادة يجب أن نزيلها ولو امتدت المسافة قليلا ، وهذا اتجاه يشط بالطريق يجب أن نختصره بما مسافته كذا . وما أكثر ما يحدث ذلك ، وهنا يضيع علينا ما حددناه في الكتاب سواء بالنسبة للنصب المقامة أو بالنسبة لعداد السيارة . ولكي يكون التحديد جامعا مانعا لجأت الى التحديد بالوصف الدقيق الذي يندر جهله ، فمثلا اذا انطلقت من شقراء فانك تعلو

« صفراء » ظهر جبل منطرح تسير فيه قليلا ثم تهبط سهلا ممتدا صفصفا وبعده تدخل كثيب السر ، جبال رمل متراكمة متصاقبة ، وهكذا مما لا أعتقد أن مسافرا يجهل هذه الحقيقة ، مما جعلني أفضلها وألجأ اليها في تحديد الطريق .

• وذكر الاستاذ الانصاري الرحلة الملكية التي قام بتدوينها الشيخ يوسف ياسين وطبعت مؤخرا ، وهي عبارة عن وصف لأول رحلة يقوم بها الملك عبد العزيز رحمه الله من الرياض على ظهور المطايا الى مكة المكرمة .. وأفاض في وصف هذه الرحلة وفي النهاية قال : هذه الرحلة ذات علاقة قوية بموضوع كتاب « المجاز .. بين اليمامة والحجاز » ولم نرَ لها ذكرا في الكتاب .

ولقد غاب عن الأستاذ الانصاري أن الرحلة الملكية على ظهور المطايا وان « المجاز » يصف طريق السيارات وان أحد الطريقين يسلك مسلكا غير مسلك الآخر وانهما لا يلتقيان الا في نقطتي تقاطع فقط ، احداهما بعد « ضرما » بقليل في منطقة « سمحان » ، والثانية على منهل « سجا » بعد عفيف بقليل ، ثم لا يلتقيان بعدها الا في مكة .. أي ان طريق المطايا يأخذ من « الرياض » طريق « المنكدر » ثم لا يفارقه الا حوالي بلدة « الشعراء » فيأخذ « المنكدر » ذات اليمين ليعانق طريق البصرة حوالي جبل « طخفة » . أما طريق الرحلة الملكية فهو على خط مستقيم أو شبه مستقيم حتى بطن نخلة حيث تتعانق الطرق هنالك .. وما دام الأمر كذلك فما الذي يحملنا على اقحام الرحلة الملكية في طريق المجاز ..

• قال الأستاذ الانصاري : وذكر المؤلف « الخوار » وقال : « انه أربعة مواضع في بلاد العرب منها : الخوار الذي قرب مكة ، ونقل عن ياقوت قوله فيه : والرابع انه قرية بوادي ساية من نواحي مكة قريبة من البردة ، وفيها عين جارية ونخل » .

ولكي يكون القارىء على علم بما قلت بدلا من هذه الأسطر المبتورة التي نقلها الأستاذ الانصاري مبتورة ، أحب أن أورد العبارة التي قلتها عن الخوار كاملة .

الخوار : وبعد « البجادية » بقليل يبدو جبل « الخوار » جنوب الطريق بعيدا عنه . وهو جبل أسود طويل معرض ، ضبطه البكري بضم الخاء وفتح الواو على صفحة خوار العجل . غير أن المتأخرين ينطقونه بفتح الخاء وتشديد الواو المفتوحة ..

والبكري ذكر أن هذا الجبل قريب من « مكة » ، غير أن « ابن بليهد » خالف « البكري» ونص على مكانه هذا بدليل ذكره مع « أجلى » ، و « أجلى » معروف قربها من الخوار الذي ذكرنا ..

ويبدو أنهما « خواران » فالبكري أراد « الخوار » الذي قرب « مكة » ويعضده في ذلك قول بشر بن أبي خازم :

حلفت بـرب الداميات نحورها ... ومـا ضم أجماد الخوار ومذنب

والداميات نحورها هي البدن تضمها شعاب مكة وفلواتها .. ثم انه جاء في هذا البيت مخففا ولو جاء مشددا كما هو اسم « خوار نجد » لانكسر البيت . وزيادة على ذلك فقد ذكر ياقوب في كتابه « المشترك وضعا والمفترق صقعا » أربعة مواضع باسم « الخوار » مخففا . ثلاثة منها خارج الجزيرة العربية والرابع قال عنه : انه « قرية بوادي ساية من نواحي مكة قريبة من البردة فيها عين جارية ونخل » .

فتبين من هذه الشواهد أن « الخوار » الذي أراده البكري غير « خوار » نجد الذي أراده ابن بليهد ، ولكنه (البكري) غلط في قرنه (بأجلى) فهي بقرب « خوار » نجد لا بقرب « خوار » مكة حينما أورد بيت ابن الاعرابي فهو شاهد لخوار نجد فقط .

أما الخوار الذي نحن بصدده والذي ذكره ابن بليهد فهو بفتح الخاء وتشديد الواو المفتوحة بعدها ألف فراء كما ضبطه ياقوت في « المعجم » وهو هذا الذي نراه بعد أن ننكب « البجادية » وهو الذي قرن « بأجلى » في بيت ابن الاعرابي التالي :

خرجن من الخوار وعدن فيـه ... وقد وازن من أجلى برعـن

وهو الذي عناه كثيِّر عزة بقوله :

ونحن منعنا بالطعان نعامنـا ... جنوبا عن الخوار في الدمث السهلا
بكل كميت مجفر الدف سابح ... وكل مزاق وردة تعلك النكـلا

وهناك « خوار » ثالث يقال لـه « خوار » الثلع يقع بين « الفروق » و « الصلب » ذكره الهمداني في « صفة جزيرة العرب » .

هذه كامل عباراتي عن الخوار . وأنت اذا جئت توازن بينها وبين ما أورده الأستاذ الانصاري وجدت بينهما اختلافا بينا . وملاحظات الأستاذ الانصاري حول الخوار هي ما يلي :

• ان القرية التي ورد اسمها في وادي « ساية » قريبة من « الخوار » هنالك هي « برزة » بالزاي لا بالدال كما ذكر صاحب المعجم .

• الخوار المشدد الزاي ليس هو المذكور في بيت ابن الاعرابي ولم يأت له ياقوت بأي تعريف .

• يقول : وبذلك أوضح صاحب « معجم ما استعجم » مراده من قوله عن « الخوار » المخفف الواو : انه موضع يجاور مكة تلقاء أجلى ، وقد استشهد لـه بقول بشر بن أبي خازم :

حلفت برب الداميات نحورها ... وما ضم أجماد الخوار ومذنب

وبالبيت الذي عزاه تارة لابن الاعرابي وتارة للنمر بن تولب :

خرجن من الخوار وعـدن فيـه ... وقد وازن من أجـلى برعـن

وهذا « الخوار » مخفف الواو حسب اقتضاء الوزن في البيتين معا .

وفيما يتعلق بملاحظات الأستاذ الانصاري هنا .. لنأخذ أولا « بردة » أو « برزة » هي جاءت في كتاب ياقوت « المشترك وضعا والمفترق صقعا » جاءت بالدال لا بالزاي ، وأنا حينما أوردتها كنت أنقل عن نفس الكتاب وأورد عبارة ياقوت بين قوسين . وأمانة النقل تجعلني أوردها كما هي ، فيجوز انها الأصح ويجوز غير ذلك ، انما أنا أنقل عن ياقوت فجئت بعبارته كما هي .

وما أورده الأستاذ الانصاري أن بيت ابن الاعرابي لا ينطبق على « خوار » نجد ، وانما ينطبق على « الخوار » الذي في تهامة ، لأن « خوار » نجد مشدد الواو ، واذا شددناها في البيت انكسر . فهذا لا يقوم دليلا على أن ابن الاعرابي لا يقصد « خوار » نجد ، ونحن نعرف جميعا أن الشعراء كثيرا ما يلجأون الى التخفيف أو الى التسهيل أو الى الاكتفاء من أجل مراعاة الوزن ، والشواهد على ذلك كثيرة . وشيء آخر ، فان ابن الاعرابي قرن هذا « الخوار » بأجلى » ، و « أجلى » لا تبعد عن « خوار » نجد بأكثر من ثلاث مراحل ، بينما خوار تهامة يبعد عنها بعشرات المراحل . وقول البكري : « انه موضع يجاور مكة تلقاء « أجلى » لا يعول عليه ، فما ثمة غير « أجلى » نجد ، والا فلماذا لم يفرد لها البكري رسما حينما جاء بها في كتابه الذي فيه عن « أجلى » ما يلي : أجلى بفتح أوله وثانيه على وزن فعلى ، هكذا ذكره سيبويه . موضع ببلاد بني فزارة ، وهو على الوادي المعروف بالجريب . قال الراجز :

حلت سليمى جانب الجريب بأجلى محلة الغريب

وقال النمر بن تولب :

خرجن من الخوار وعدن فيه وقد وازن من أجلى برعن

وأجلى بعيد عن الخوار . وقال ثعلب : قال مزيد أبو المجيب الربعي : أجلى : هضيبات حمر بين فلجة ومطلع الشمس ، وماؤهن الثعل .. انتهى كلام البكري . فهو لم يذكر أجلاوين وانما ذكر « أجلى » نجد فقط . ولو كان ثمة أخرى لذكرها اما رسما أو عرضا . ثم هو قد ذكر بيت ابن الاعرابي أو النمر بن تولب على اختلاف في نسبة البيت ذكره شاهدا على « أجلى » « خوار » نجد .

• قال الأستاذ الانصاري : وفي بحث المؤلف في المويه قال : « وقد ظن بعض الباحثين أنه المويه الحقيقي الذي تحدثنا عنه آنفا ، فخلع عليه صفات ذلك ، ولما جئت لأصحح ما وقع فيه أصر على رأيه فأعرضت وتركت الحكم للعارفين والتاريخ » . والأمر حيال موضوع المويه (الكلام للانصاري) ما زلت أعتقد أنه مبني على سوء تفاهم بين « أحد الباحثين » الذي عناه المؤلف وبين المؤلف .. فأحد الباحثين لم يكتب ولم يظن أن المويه الجديد هو القديم . ولا تعرض لهذا الأمر في عدد « رحلة الرياض » من مجلة «المنهل» ، كان يصف مشاهداته في طريق الرياض المسفلت من الطائف ، وحينما وصل « محطة المويه » على الاسفلت وصفها كمحطة قائمة يمر بها المسافرون حاليا على خط الاسفلت فحسب .. ولما ورد اسم « المويه » مجردا بمناسبة وصفه لمشاهداته في « محطة المويه » همش على صيغة « المويه » المجردة بما ورد عنها غير قاصد انه « محطة المويه » الحالية التي مرّ بها ، كما ظن ناقده مؤلف كتاب المجاز وبنى عليه نقده ، وانما هذا مجرد بحث عن اسم وكان ورد في الكتب قدمه « أحد الباحثين » في حقول الهوامش بمناسبة ذكره المجرد . وآية هذا الواقع عنوان الفصل في « رحلة الرياض » الذي هو : « في محطة المويه » وآيته من جهة أخرى بينة في هامش صيغة « المويه » المنفردة عن « المحطة » أورد « الباحث » ما ذكره بعض المؤلفين عن « المويه » مجردا من صيغة « المحطة » مما يدل على أن البحث العلمي لا يختص بمحطة المويه وحدها وانما هو للمويه ومحطته معا .. »

والواقع أن الأستاذ الانصاري هنا قد قفل من رحلة طويلة قام بها معي حينما نقدت كتابه « رحلة الرياض » وأصر فيها على أن « المويه » الجديد الذي يمر بـه الخط المسفلت الآن هو المويه المذكور في التاريخ . ثم رجع الأستاذ الانصاري وتنازل عن ذلك النقاش الطويل ، فجزاه الله خيرا والرجوع الى الحق أحق .

كانت عبارته في كتابه « رحلة الرياض » عن « المويه » صريحة في أنه يقصد « المويه » القديم ولا يظن أن هناك « مويهين » : « مويه » تركه الخط المسفلت يمينه للذاهب الى الحجاز بما تقدر مسافته بثلاثين كيلا وهو « المويه » الحقيقي « مويه هكران » الذي تحدثت عنه بعض الكتب . و « مويه » جديد سمي باسم ذلك لأنه وضع على سمته من الأرض ليس الا ..

وعبارته في رحلته هي هذه : ... بعد سير حثيث متواصل تراءت لنا بعد لأي ، من بعيد في وهج السراب المتلامع مباني بلد ، ومحطات نفط ومركز مرور ، وقد علمنا حين بلغناها أنها « محطة المويه » . ثم همش على ذلك بقوله : للمويه ذكر في كتاب «جغرافية شبه جزيرة العرب » ، لعمر رضا كحالة ، فقد قال : ان سهل ركبة يمتد من نواحي « عشيرة » التي تبعد عن الطائف ٦٥ كيلومترا الى جهات المويه(١) .

وفي بحث « الحرات » قال : قحرة أليس (كذا) تمتد من المويه شمال ركبة الى مسافات بعيدة في الشمال والشمال الغربي (ص ٧٩)١هـ (رحلة الرياض ص ٨٧٠) .

هذا هو كلام الأستاذ الانصاري عن « المويه » ، وهو لا يقبل الجدل ، انه ينصب على « المويه » الحقيقي وانه ، في كلامه هذا ، يظن أن هذه الحجرات ومحطات النفط التي مر بها على الطريق المسفلت انها هي « المويه » الحقيقي غير عالم بأن هذه قد جدت قريبا جدا بعد بناء الخط وان علة تسميتها بالمويه الجديد انها تقع بمحاذاته ، انتقل بعض من أصحاب المصالح من « المويه » الحقيقي بعد انصراف الطريق عنه الى هذا المكان وسموه باسمه ، وان كان « المويه » تصغير ماء في لغتهم ولا ماء هنا وانما ينقل لـه الماء من مسافات بعيدة ، بخلاف المويه الحقيقي ، فان ماءه بارز على وجه الأرض .. وعمر رضا كحالة ، لا يقصد بذكر « المويه » هذه المحطة الصغيرة غير ذات الماء ، فهذه ما وجدت الا بعد تأليفه كتابه بزمن .

فهذه مجرد ملاحظة عابرة نبهت الأستاذ الانصاري اليها ولكنه أصر على أنها هي المويه الحقيقي وطلب مني دليلا ملموسا فعقبت بما لدي من أدلة ولكنها لم تقع منه موقع القبول . وحينما جاء ذكر « المويه » في كتابي « المجاز » قلت عبارتي التي أوردها الأستاذ الانصاري في نقده كتابي « المجاز » ، ولكنه هذه المرة رجع الى الحق فجزاه الله خيرا .

وعبارة الأستاذ الانصاري التي عقب بها على نقدي لرحلته ، هي هذه : « والأمر لا يخلو أحد حالين : اما أن يثبت لـنا الأستاذ — ابن خميس — ان ذلك البلد الذي وضع فيه الملك الراحل — الملك عبد العزيز — مركزا وامارة وهو باسم المويه — هو غير محطة المويه الحالية . وان هذه المحطة مستجدة بعده ومنقوله منه ، أولا فانها هي .. »

هذه هي عبارة الأستاذ الانصاري آنذاك حسبما كتبه في جريدة المدينة ، وما أسلفنا هي عبارته اليوم في مجلة القافلة .

• قال الأستاذ الانصاري : وقد ذكر المؤلف أن طريق الحاج من البصرة الى مكة يسمى « المنقَّى » وقد مر بنا انه يسمى لدى العرب أيضا باسم « فلج » .

وفي الحقيقة أن الطريق كله لا يسمى « فلجا » ولا يسمى « المنقى » ففلج مكان بين « حفر الباطن » وبين « الدهناء » يمر به الطريق . و « المنقَّى» مكان يمر به الطريق نفسه في حرة « المويــه » سمي « منقى » لأنه نقي من حجارة الحرة الخرشة الوعرة التي لا تستطيع الركاب عبورها الا بعد التنقية وهكذا نقي فسمي « المنقى » ، وما ذلك من باب تسمية الكل باسم البعض ان بدا للأستاذ الانصاري أن يقول انه كذلك .

• ولاحظ الأستاذ الانصاري عليّ فيما لاحظه أنني حددت رقعة سوق عكاظ من الجنوب الى الشمال بأربعة أكيال ومن الشرق الى الغرب بكيلين ، وقال ان هذه المسافة لا تتسع لوفود العرب وغيرهم في هذا السوق . كذلك أخذ علي انني أخذت بقول صاحب كتاب أسواق العرب في مبدأ اقامة سوق عكاظ ونهايتها ..

فأما عن تحديد مساحة سوق عكاظ بهذا القدر فما أرى أن أكبر معرض اليوم ، والعالم غير العالم والزمن غير الزمن ، يتجاوز هذه المساحة : أربعة آلاف متر في ألفي متر ، وهذا محل العرض وتبادل الصفقات وتنافر القبائل وتفاخرها وعرض شعرها حول قبة النابغة .. اما مضارب القبائل ومنازلها فلا يلزم منه أن يكون في قلب السوق . وأما بدء

(١) ص (١٧٤) الطبعة الثانية بمصر .

السوق ونهايته فقد أخذته عن مرجع معتبر بحث وحفظ ودوّن وأصبح مرجعا في هذا المجال كما بحث الأستاذ الانصاري وحفظ ودون ، ومن أين لي أن اعرف أن الحق في جانب الأستاذ الانصاري دونه ، فهي دعوى تحتاج الى دليل ..

• وذكر الأستاذ الانصاري الطائف وأفاض في تعداد بعض آثارها وما بصخورها من كتابات نقلها عن كتاب الأستاذ شكيب أرسلان وعن كتاب « ما رأيت وما سمعت » ... وانا حينما كتبت عن الطائف أو عن غيرها مما مررت به في كتابي هذا ما أردت أن أستوعب وأن أنقب عن كل كبيرة وصغيرة وأن أقف عندها وقوف المفرد لها في بحث مستقل ، ولو عملت ذلك بالنسبة للطائف وبالنسبة لما مررت به من بلدان نجد وما لها وما عليها على النحو الذي يذكره الانصاري لاقتضاني الحال أسفارا مجلدة . ولكنني اذا مررت بالعلم أعطيت أبرز صفاته وأوضح معالمه .

لماذا لم يقل الأستاذ الانصاري هذا القول عن « الدوادمي » وآثاره ومعادنه وأخباره ولماذا لم يقله عن « جبل النير » ولا عن غيره ..

• واستدرك الأستاذ الانصاري عليّ أيضا حينما مررت « بمزدلفة » ذكري حكم الوقوف بها على المذهب الحنبلي دون سائر المذاهب ، فهو يطالبني بأن أقف عند كل مشعر لأسرد أقوال الفقهاء فيه على اختلافها وكثرتها فانتقل من بحث وصف هذه الأعلام وتاريخها الى الأحكام الفقهية والافاضة فيها ، وهذا ما ليس من غرض الكتاب .

• واستدرك الأستاذ الانصاري عليّ استعمالين لغويين هما الاتيان بـ « لا » بعد سوف كقولي : سوف لا نرى الهلال ويقول أن الأصح استعمال « لن » بدلا من « لا » مرتين .

واستعمالي « كلا » بمنزلة « كلتا » مرة واحدة .

فأما استعمال « لا » بعد سوف فقد نطق به العرب وجاء في أمثالهم : سوف لا أعاودك وهذه آثار فأسك » . وأما استعمال « كلا » بدلا من « كلتا » فهذا ولا شك سبق قلم .

• واستدرك الأستاذ الانصاري عليّ قولي : نبي الاسلام بحجة أن ذلك اعتراف ضمني بغير الاسلام ، وقال أن الصحيح أن نقول نبي الله .

سبحان الله هل اذا أضفت نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، الى الاسلام أو أضفت الأنبياء الآخرين الى دياناتهم أكون معترفا ضمنيا بتلك الديانات وبعدم نسخها .. ومن أين وكيف ؟؟ وما هو التفسير اللغوي لذلك وما هو الدليل الشرعي لـه ؟؟ هل اذا قلت شيخ الحنابلة معناه انني معترف ضمنيا بمذهب المعتزلة أو الأشاعرة أو غيرهم ؟

ان من صميم عقيدة المسلم أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .. الخ ، فما المفهوم من قوله تعالى : **« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن لـه مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »** . ؟

ان التعبير بنبي الاسلام له مقصد بلاغي المراد به الاشادة بالاسلام ونبيه وتعظيمهما وتوقيرهما . ألا ترى أن المعظم للشيء — وللاسلام ونبيه المثل الأسمى — يقول ملك العدل ، ورسول الحرية ، وأمير البيان .. هذا المقصد من تعبيرنا بنبي الاسلام .

وبعد ، فلك الشكر على ما أثنيت به على كتابنا ولك الشكر أيضا على ما سجلته من استدراكات كانت سببا في أن نلتقي بقراء « القافلة » الأعزاء والله المستعان ■

عبدالله بن محمد بن خميس — الرياض

أخبار الكتب

* صدر للعلامة الراحل الدكتور زكي المحاسني كتابان قبيل وفاته هما « الشاب الظريف » وقد نشرته المكتبة العباسية بدمشق و « فقه اللغة المقارن » وقد نشرته مكتبة الصفدي بدمشق .

وكان الراحل قد أعد للنشر كتبه المخطوطة والتي يرجى صدورها في القريب ، وهي « ديوان المحاسني » و « الملحمة العربية » وقد نشر حلقاتها المتتابعة في « قافلة الزيت » وكان يأمل أن يروى فيها كل تاريخ العرب الى عصرنا الحاضر ، و « اللسان العربي » و « المعاجم العربية والموسوعات » و « دراسات في الأدب العربي القديم والمتوسط الى عصور الدول المتتابعة » و « نشيد الانشاد » و « دراسات في النقد والتعريف بالنتاج الحديث في العالم العربي ». كما قام المرحوم المحاسني بتنقيح جميع كتبـه المطبوعة لتخرج على وجه أكمل وأوفى .

* أصدر الصحفي السعودي الكبير الأستاذ عثمان حافظ كتابا مسهبا عن « تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية » منذ نشأتها حتى اليوم ، وهو يعد من المراجع المعتمدة في هذا الباب . وقد نشرته شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة .

ومن الكتب التي تتناول علوم الصحافة المختلفة كتاب « صاحبة الجلالة الصحافة » للأستاذ عدنان الملوحي وقد نشرته مؤسسة دار الحياة بدمشق ، و « الرأي العام والاعلام والعلاقات العامة» للدكتور حسن الحسن ونشر الدار اللبنانيةللنشر والعلاقات العامة .

* من الدراسات الأدبية التي صدرت أخيرا هذه المجموعة « الشعر الحديث في جنوب الجزيرة العربية » وهو بحث للمستشرق الدكتور عبد الكريم جرمانوس صدر باللغة الانكليزية عن أكاديمية العلوم في المجر ، و « دراسات وتراجم عراقية » وهو كتاب نفيس للأستاذ عبد الرزاق الهلالي ينصرف الى استقصاء الحياة الشعرية في العراق ويورد حقائق مجهولة عن رواد الشعر المعاصرين ، وقد صدر الكتاب عن مكتبة النهضة ببغداد ، وكتاب « ثقافتنا بين نعم ولا » للأستاذ غالي شكري وقد صدر عن دار الطليعة ، و « معارك العقاد الأدبية » للاستاذ عامر العقاد وقد صدر عن المكتبة العصرية ببيروت ، و « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » للاستاذ البشر بن سلامة وقد صدر عن الدار التونسية للنشر ، و « الأمثال العربية القديمة » للمستشرق رودلف زلهايم وقد ترجمه الدكتور رمضان عبد التواب ونشرته دار الأمانة ، و « الزجل في المغرب » للدكتور عباس بن عبدالله الجراري وقد صدر عن مطبعة الأمنية بالرباط ، و « الرصافي : آراؤه اللغوية والنقدية » للدكتور أحمد مطلوب ، وقد صدر عن معهد الدراسات والبحوث العربية ، « والحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة » للاستاذ خليل داود الزرو وقد صدر عن دار الآفاق الجديدة ببيروت .

و « الأدب الحديث في نجد » للأستاذ محمد بن سعد بن حسين وقد نشرته مكتبة السنوسي بالقاهرة ، و « البحث الأدبي : طبيعته — مناهجه — أصوله — مصادره » للدكتور شوقي ضيف وقد نشرته دار المعارف ، و « محاكمة طه حسين » للأستاذ خيري شلبي وقد نشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ، و « أدباء الجيل الغاضب » للدكتور محمود السمرة وقـد نشرته مكتبة عمان ، و « دراسات في الواقعية الأوروبية » لجورج لوكاش وترجمة الأستاذ أمير اسكندر ومراجعة الدكتور عبد الغفار

مكاوي ونشر الهيئة العامة للكتاب ، و « دراسات في المسرح والسينما عند العرب» ليعقوب لنداوي وتقديم المستشرق البروفسور الراحل هاملتن جب وترجمة الأستاذ أحمد المغازي ونشر الهيئة العامة للكتاب . وألحق بالكتاب فهرس بالمسرحيات العربية والمترجمة بين عامي ١٨٤٨ و ١٩٥٦ ، و « المسرح العربي » للأستاذ أحمد رشدي صالح ونشر دار مجلة الجديد و « لعبة الحلم والواقع : دراسة في أدب توفيق الحكيم » للأستاذ جورج طرابيشي ونشر دار الطليعة ، و « إيخلوس : دراسة في الأدب اليوناني » ترجمة الدكتور ابراهيم سكر ومراجعة الدكتور محمد سليم سالم ونشر الهيئة العامة للكتاب .

* من كتب التراث التي صدرت أخيرا طبعة متميزة من « الفهرست» لمحمد بن اسحق النديم وقد حققه السيد رضا تجدد و « ديـوان أبي الهندي وأخباره » وقد صنفه الأستاذ عبد الله الجبوري ونشره في بغداد ، و « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي وقد حققه وجمع فصوله المتناثرة عبود الشالجي وأصدر منه جزءين ، وهو مطبوع في العراق . كما صدر الجزء الرابع والأخير من كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » لابن واصل تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع ومراجعة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ونشر الهيئة العامة للكتاب . و « كتاب الوفيات » لأبي العباس أحمد بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسطنطيني وقد حققه الأستاذ عادل نويهض وصدر عن المكتب التجاري ببيروت ، و « الفتوحات المكية » لابن عربي وقد حققه الدكتور عثمان يحيى وراجعه الدكتور ابراهيم بيومي مدكور وصدر عن الهيئة العامة للكتاب ، و « ما يجوز للشاعر في الضرورة » للقزاز القيرواني وقد حققه الدكتور المنجي الكعبي وصدر عن الدار التونسية للنشر ، و « شعر السلامي » تحقيق الأستاذ صبيح رديف ونشر مطبعة الايمان ببغداد ، و « غاية المرام في علم الكلام » لسيف الدين الآمدي وقد صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « شعر علي بن جبلة المعروف بالعكوك» وقد حققه الأستاذ أحمد نصيف الجنابي ونشرته مطبعة الآداب بالنجف ، و « سياسة الصبيان وتدبيرهم » لابن الجزار القيرواني وقد حققه الدكتور محمد الحبيب الهيلة ونشرته الدار التونسية للنشر ، و « شعر أبي أسعد المخزومي » وقد حققه الدكتور رزوق فرج رزوق وطبع في مطبعة الايمان ببغداد . كما صدرت الطبعة الثانية من كتاب « رحلة الحيمي الى الحبشة » للحسن بن أحمد صلاح اليوسفي الحيمي اليماني وقدحققه الدكتور مراد كامل وطبع في مطبعة دار العالم العربي .

وظهرت في بيروت ثلاثة من الأجزاء العشرة لمصنف الامام عبد الرزاق الصنعاني ، وهو من أقدم مؤلفات علم الحديث ، بتحقيق العالم الهندي الأستاذ حبيب الرحمن الأعظمي الذي سبق له أن حقق كتاب« الزهد» لابن المبارك و «المطالب العالية » لابن حجر ، و « مسند الحميدي » .

* من كتب السير والتراجم الجديدة صدرت الدراسات التالية : « أحمد أمين : حياته وأدبه» للأستاذ عامر العقاد ونشر المكتبة العصرية ببيروت ، ويعد الأستاذ عامر العقاد دراسة جديدة عن صالح جودت وشعره . وصدر كتاب « خليل السكاكيني : المربي الأديب الانسان » للأستاذ حمودة زلوم وقد صدر عن المطبعة الفنية التجارية بعمان ، و « ابن خفاجة الأندلسي » للدكتور محمود رضوان الداية وقد صدر عن المكتب الاسلامي بدمشق ، و « قادة الفكر » للأستاذ محمد رشدي حمادي وقد صدر عن مكتبة عيسى الحلبي ، و « بريخت » لرونلد جراي وقد ترجمه الأستاذ نسيم مجلي وراجعه الدكتور أحمد كمال زكي وصدر عن الهيئة العامة للكتاب ، و « بلابل من الشرق » وقد ترجم فيه الشاعر صالح جودت لعدد من شعراء الوطن والمهجر منهم شوقي وناجي والشابي والياس فرحات والقروي وأبو شادي ورامي وغيرهم . وقد صدر الكتاب (وهو طبعة ثانية) في سلسلة « اقرأ » لدار المعارف ، و « لمحات من حياة العقاد » للأستاذ عامر العقاد وقد صدر عن دار الشعب و « الامام القشيري » للدكتور ابراهيم البسيوني بمقدمة للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار وقد صدر عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

ويصدر قريبا للأديب العراقي الأستاذ وحيد الدين بهاء الدين كتاب عن العلامة الراحل الدكتور زكي المحاسني .

ومن كتب التراجم والسير التي تظهر قريبا كتاب يتنادى لتأليفه أصدقاء الراحل الدكتور زكي المحاسني في الأقطار العربية والمهاجر وديار الاستشراق لتخليد ذكراه . كما يعد الأستاذ أبو القاسم محمد كرو العلامة التونسي المجمعي ثلاث دراسات جديدة عن « محمد الخضر حسين » و « ابن منظور الأفريقي » و « أحمد بن يوسف التيفاشي » . ويعد الدكتور ناصر الدين الأسد دراسة عن العلامة الفلسطيني الراحل الأستاذ قدري حافظ طوقان .

* وضع الباحث الأمريكي الدكتور توماس هامل دراسة عن العلامة العراقي الكبير جعفر الخليلي باللغة الانكليزية ، وستصدر لها ترجمة عربية قريبا .

* من أضخم كتب التاريخ والآثار التي صدرت أخيرا كتاب « العرب واليهود في التاريخ — حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية » وقد وضعه العلامة الدكتور أحمد سوسة وصدر في نحو ٦٠٠ صفحة كبيرة ضمن مطبوعات مديرية الثقافة العامة بوزارة الاعلام العراقية .

* صدر للدكتور حسن الساعاتي كتاب « علم الاجتماع الخلدوني : قواعد المنهج» ، وقد نشرته دار النهضة العربية ببيروت .

* من كتب الرحلات التي صدرت أخيرا « رحلة الشرق والغرب » للدكتور لويس عوض وقد نشر في سلسلة « اقرأ » لدار المعارف و « أعجب الرحلات في التاريخ » للأستاذ أنيس منصور وقد صدر عن المكتب المصري الحديث بالاسكندرية .

* أصدر الأديب التونسي الأستاذ عثمان الكعاك كتابا جديدا عنوانه « العلاقات بين تونس وايران » نشرته الدار التونسية للنشر .

* دفع الشاعر المهجري الأستاذ جورج صيدح الى المطبعة بمجموعة شعره لتصدر في أربعة دواوين عنوانها : « آفاق وأشواق » و « حكاية مغترب » و « أصداء » و « حسرات ودعابات وغوايات ومطارحات » . كما يصدر للشاعر الأستاذ راشد الحمدان ديوان عنوانه « الشماريخ » .

* في الأدب الروائي صدرت الكتب الجديدة التالية « الدنيا وأنا » مجموعة أقاصيص للسيدة جاذبية صدقي نشر الهيئة العامة للكتاب وكانت قد نشرت بعضها في «قافلة الزيت » ، و « قصص من المنصورة » وقد اشترك في تأليفها الأساتذة شوقي وافي وعماد الدين عيسى وعبد العزيز الشناوي وسمير بسيوني وقدم لها الأستاذ علي شلش وصدرت عن شركة بسيم للطباعة بالمنصورة ، و « ضجة في الزقاق » وهي رواية للأستاذ غانم الدباغ نشر مطبعة الأديب ببغداد ، و « السجن » وهي رواية للأستاذ نبيل سليمان نشر دار الفارابي ببيروت ، و «سآخذ بثأري » رواية للبارونة أوركزي وقد ترجمها الأستاذ غبريال وهبة ونشرتها المؤسسة العامة للتأليف والنشر ، و « فرحة العودة » وهي مسرحية للأستاذ محمد أحمد النشمي وقد صدرت عن المطبعة العصرية في الكويت ، و مسرحيتا « بيوت الأرامل والعابث » لجورج برنارد شو وقد ترجمهما الأستاذ محمود علي مراد وراجعهما الدكتور عبد الرزاق المدواني وصدرتا في مجلد واحد عن وزارة الاعلام بالكويت .

* صدر الجزء الأول من « التفسير الوسيط للقرآن الكريم » من وضع لجنة من العلماء وقدم له الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ونشره مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر . ومن الدراسات الاسلامية الجديدة « مباحث في علوم القرآن الكريم » للشيخ مناع القطان نشر مكتبة العصر الحديث ببيروت ، و « مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الاسلام » للأستاذ أنور الجندي وتقديم الدكتور مهدي علام ونشر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ، و « العالم الاسلامي المعاصر » للدكتور جمال حمدان نشر عالم الكتب .

* كتاب كبير عنوانه « جنة الصداقة والصديق » يصدر قريبا للدكتور رياض شمس .

* طبع في حمص « معجم شوارد النحو » للأستاذ رفيق فاخوري . ومن المعاجم والموسوعات الحديثة « القاموس الدولي لاستخدام الطاقة النووية » للدكتور محمود خيري بنونة ونشر دار الشعب ، والجزء الثالث من المجلد الأول من « الموسوعة الموجزة » للأستاذ حسان بدران الدين الكاتب ونشر مطابع ألف باء الأديب بدمشق و «قاموس الفنانين التشكيليين الأجانب والمصريين » للسيدة فهيمة أمين ابراهيم طبع القاهرة ■

في ذمـة اللـه

افتقدت القافلة مؤخرا كاتباً من كتابها المرموقين هو الشاعر والأديب السعودي الأستاذ فؤاد شاكر الذي قضى جـل سني حياته في مؤازرة الحركة الفكرية وخدمة الضـاد . . . ولـه العديد من المؤلفات الأدبيـة والشعرية . . تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنـانه .

وانـا للـه وانـا اليـه راجعـون

الحَبيبُ الهَاجِرُ

للشاعر سعيد فياض

قالت : أحبك مثلما تهوى العنادلُ غصن ورد
وأراك تغفل عن هواي ولا تحس بنار وجدي
فبناظريك من الغفا أضعاف أشواقي وسهدي
.... أهفو اليك ، فتنثني عيناي عن نُكر وصدّ
ويعود بي ومض السراب اليك .. في جزر ومد
فأطيل خلفك حبل آمالي على أنقاض وعد
لأعود من سُحُب المنى بلقا خيال ليس يجدي
الا لإيهام العذول بأن من أهواه .... عندي
.... يا من صبرتُ على جفاه بعُدّة الصبر الأمدّ
قل لي : الى م تذلني في الحب ؟ في انكار عهدي ؟
والى م تجزيني على حبي وإخلاصي ... ودّي
بالهجر .. بالإهمال .. بالنسيان .. بالصّدّ الأشد
وأنا التي حفظَتْ هواك ونزّهتْهُ عن التحدي ؟

* * *

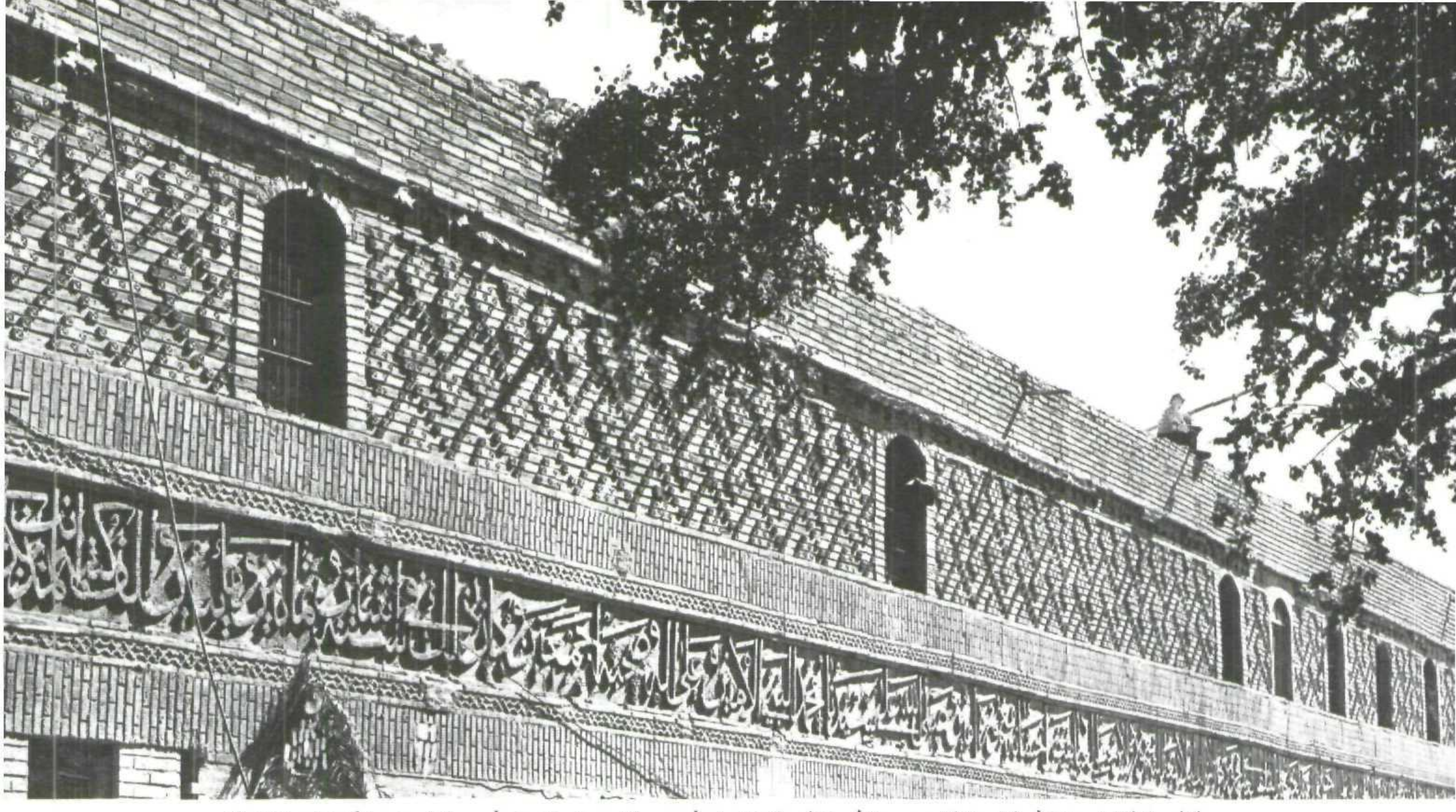
أجتر من طعم السنين الما ضيات ... رسيس شهد
وأعيش ... لا خفقٌ بأضلاعي ، ولا ورد بخدي
وتزورني الأحلام كالومضات في مشبوب زند
لتعود بي عن وهج أحلامي .. الى عَتَبي وحقدي !!

* * *

يا كلّ آمالي العذاب ... وكل إعزازي وسعدي
يا خدن آهاتي اذا اشتا قت الى أنفاس نِدّ
يا واحةً معطارةَ الأطياب ... في قرب وبعد
هبني صبرت على نواك ... وهمتُ في البأساء ، وحدي
وقنعت بالنجوى ... وقد أطفأ ت بالإيحاء ، وجدي
اني أرى في العيش دونك ، ميتة ... من غير لحد
وأحس بالدنيا تدور عليّ في برق ورعد
عد لي ... وقل لي يا حبيب العمر ... من أغواك بَعدي ؟!

سعيد فياض – الرياض

ع. قباني



الواجهة الخارجية لمبنى المدرسة المستنصرية في بغداد والمطلة على نهر دجلة .. وقد ظهرت في وسطها بعض الكتابات المنقوشة ..

بغداد مدينة السلام

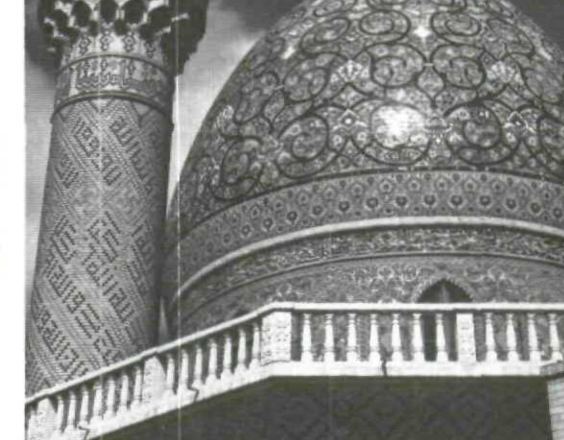
تتبوأ مدينة بغداد مكانة سامية في التاريخ الحضاري باعتبارهـا وارثة الحضارات المتعاقبة التي نمت وازدهرت في وادي الرافدين ، المهد الأول لأولى الحضارات البشرية الناضجة . وقامت في منطقة بغداد وقبل أدوارها العباسية مراكز حضارية مهمة تتمثل بقاياها اليوم في تلك المستوطنات الشاخصة التي تدل على ماضيها ومراحل تطورها ، ومنها موقع تل حرمل « مدينة شادويوم » في منطقة بغداد الجديدة حيث قامت فيها أول جامعة علمية في العالم . وعنيت هذه الجامعة بالدراسات العلمية وخاصة علوم الرياضيات كالهندسة والجبر .

ويرجع تاريخ هذا المستوطن الى العهد البابلي القديم (١٨٥٠ – ١٥٠٠ق.م.) ، وكذلك موقع « تل الضباعي » الكائن قبال « تل حرمل » في الجانب الشرقي من قناة الجيش ، ومدينة عقرقوف « دوركوريكالزو » . ولقد هدانا البحث الآثاري الى بقايا أبنية تعود الى العهد البابلي الحديث (٦١٢ – ٥٣٨ق.م.) ، وشيدت في زمن الملك نبوخذ نصر (٦٠٤ – ٥٦٢ق.م.) . وهناك مدينتا سلوقية ، والمدائن .

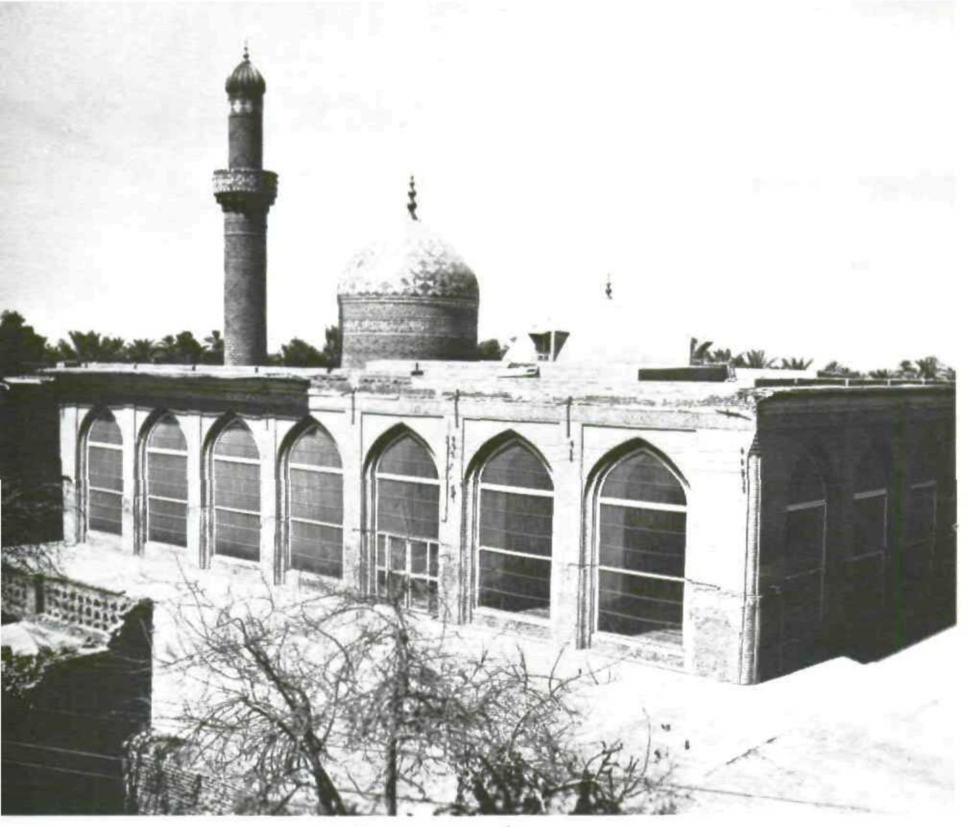
وبعد الفتح العربي للعراق ، اتخذ العرب المسلمون من مدينة المدائن ولفترة قصيرة مركزا عسكريا واداريا للجيوش العربية التي حملت معها مبادىء الحرية ومفاهيم العدالة الاجتماعية لينقذوا البشرية من غياهب الظلام وأغلال العبودية . ولكن العرب سرعان ما هجروا المدائن حين اختطوا حاضرة عربية في الكوفة . ومع ذلك فقد ظلت مناطق عديدة من بغداد آهلة بسكانها العرب . وقد كان للاسلام أثر كبير في اقامة العديد من القرى خاصة وان جميع المتطلبات الأساسية لنشوء المستوطنات والحواضر كانت موفورة فيها ، مثل خصوبة التربة واعتدال المناخ وتوفر مصادر المياه . هذا ، بالاضافة الى موقعها الاستراتيجي ، سواء من الناحية العسكرية أو التجارية ، اذ كانت ملتقى لطرق المواصلات التجارية ومحطة رئيسية تربط بين الشرق والغرب عن طريق الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط . وظلت على هذ الأهمية الى ما قبل انشاء قناة السويس واكتشاف رأس الرجاء الصالح . كل هذه العوامل ساعدت على ازدهار مطقة بغداد قبل أدوارها العباسية . فاشتهرت بقراها العامرة وبحقولها وبساتينهـ ودياراتها . ولعل هذه المزايا هي من الأسباب التي حملت الخليفة المنصور على اختيار بغدا عاصمة للدولة العباسية .

التسمية

اختلف المؤرخون والبلدانيون في أصل تسمي بغداد وذهبوا مذاهب شتى ، فمنهم من اعتق بأنها مشتقة من اللفظ الكلداني « بلداد » المؤلف من كلمتي « بل » وهي اسم إله كلداني و « داد » كلمة آرامية قديمة بمعنى فتك . وقد أطلقت هذه التسمية على مدينة شيدها الملك نبوخذ نص تكريما لـ « بل » بعد انتصاره في حروب دارت



جامع الحيدر خانة في بغداد .



مرقد الامام الأعظم في مدينة الأعظمية .



بقلم الدكتور عيسى سلمان

رحاها في منطقة بغداد . وهناك بعض الباحثين يرون أن اسم بغداد مشتق من الكلمة الآرامية « بكداد » المكونة من كلمتين هما « ب » المقتضبة من كلمة بيت والتي كانت تقع في بداية أسماء المدن مثل « بعقوبا » و « باعشيقا » ، و « كداد » بمعنى « غنم » أو « ضأن » ، ومعناهما بيت الغنم أو الضأن . ومن الآراء الأخرى ما يشير الى أنها كلمة آرية وقد استعملها الكاشيون في بادىء الأمر عندما كانوا في بابل في مطلع الألف الثاني ق.م ، ومعناها عطية الإله . وقد هدتنا التنقيبات الآثارية الى الكشف عن أصل تسمية بغداد ، وذلك من بعض الكتابات المسمارية التي تعود الى العهد البابلي القديم في حوالي الألف الثاني ق. م. فقد ذكرت كلمة بغداد بهيئة « بغدادو » و « بغدادي » و « بكدادو » ، وتقرأ « خدادو » ، وتشير الى مدينة كانت قرب بغداد الحالية . ويرجح أن يكون هذا التفسير أكثر واقعية من غيره لأنه مستند الى وثائق تاريخية ثابتة تدحض بقية الآراء والتفاسير التي تقول بأن الكلمة آرامية أو فارسية ، وتدل على أن الكلمة قديمة وترجع الى العهد البابلي القديم .

بغداد عاصمة الخلافة العباسية

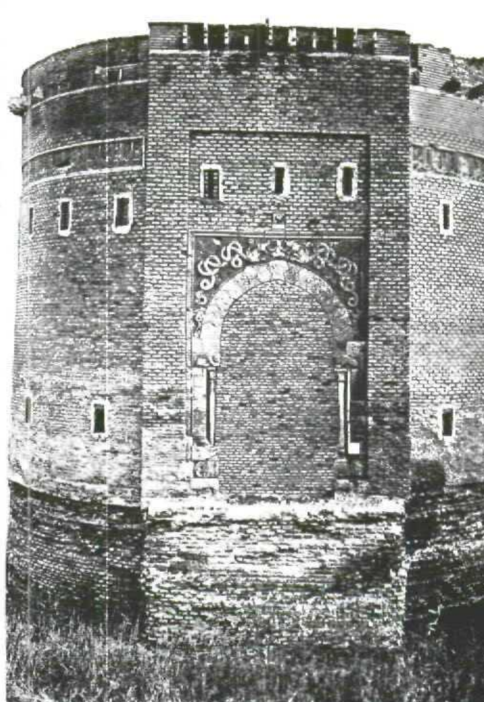
لما آلت الخلافة الاسلامية الى بني العباس في عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، انتقل مركز الحكم الى العراق إثر سقوط الدولة الأموية في الشام . وقد اتخذت الدولة العباسية ، قبل تشييد المنصور لمدينته المدورة ، ثلاث مدن مراكز للحكم العباسي وهي ، « الكوفة » و « الأنبار » التي شيدها عبد الله بن محمد « السفاح » وسميت بـ « هاشمية الأنبار » ثم « هاشمية الكوفة » التي اتخذها المنصور مركزا لحكمه ، وهي قريبة من الكوفة ، فاستقر بها زمنا ثم هجرها لظروف سياسية حملته بالتالي على الابتعاد عن منطقة الكوفة كلها بسبب كثرة الفتن واضطرابات وشغب الكوفيين خاصة . وصمم على اختيار موضع جديد لعاصمته . وبعد استعراض أماكن عديدة انتهى المنصور الى اختيار موقع بغداد ليشيد فيه مدينته ، فكتب الى عماله في الأقاليم لينفذوا اليه المهندسين والبنائين وأصحاب المهن والصناعات الى أن اجتمع منهم حوالي المائة ألف عامل . ووضع التصاميم الأساسية للبناء . وقبل المباشرة به اختطت التصاميم على الأرض بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط وأوقدت فيها النار فاتضح بجلاء تخطيطها . ومن ثم حفرت أسس الأسوار والخندق المحيط بها من الخارج . وقد عني المنصور باستحكام مدينته ، ويتجلى ذلك في التصاميم المعمارية التي نفذها في البناء حيث تبرز فيها النواحي العسكرية والتحصينات الدفاعية التي جعلتها في منجى من كل غزو خارجي ، لذلك أراد المنصور أن تكون مدينته مدورة . ولقد أطنب البلدانيون كثيرا في وصفها حتى عدّ



منظر عام للبهو الكبير التابع
لخان مرجان في مدينة بغداد ، تزين سقفه الرسوم الزخرفية .

البعض منهم بأنها فريدة من حيث التخطيط وانها أول مدينة مدورة ، الا أن الدراسات التخطيطية والمعمارية القديمة دلتنا على أن مدنا مدورة أقدم من بغداد اختطت في العراق مثل بعض المدن والقلاع الآشورية التي قام بتشييدها «شلمنصر الثالث» (٨٥٨–٨٢٤ق.م.) وكذلك الملك الآشوري «سنحاريب» (٧٠٥–٦٨١ق.م). وللعرب باع طويل في مجال تخطيط المدن المدورة منها وغير المدورة ، ونجد في أطراف الجزيرة العربية العديد من الحواضر ، ومن الأمثلة المهمة ما نجد في تخطيطهم لمدينة مأرب ومدينة صنعاء وغيرهما من المدن .

يعد تخطيط مدينة بغداد قمة التطور في تخطيط المدن عند العرب ، حيث أن تصاميمه تعكس جوانب مشرقة من نضوج الفكر العربي في مجال العمارة والتخطيط . وكان اليوم الذي شرع فيه المنصور تشييد مدينته مشهودا ووضع أول لبنة بيده ، ومن ثم شرعوا في البناء ، وكان ذلك سنة ١٤٥هـ في موضع كان يعرف قديما باسم «المزرعة المباركة» عند نهر «الصراة العظمى» (١) ، ويمكن تحديد موضع المدينة اليوم في منطقة العطيفية بين مدينة الكاظمية والكرخ .



باب الطلسم وهو من المخلفات الأثرية التي يرجع تاريخها الى عهد الخلافة العباسية .

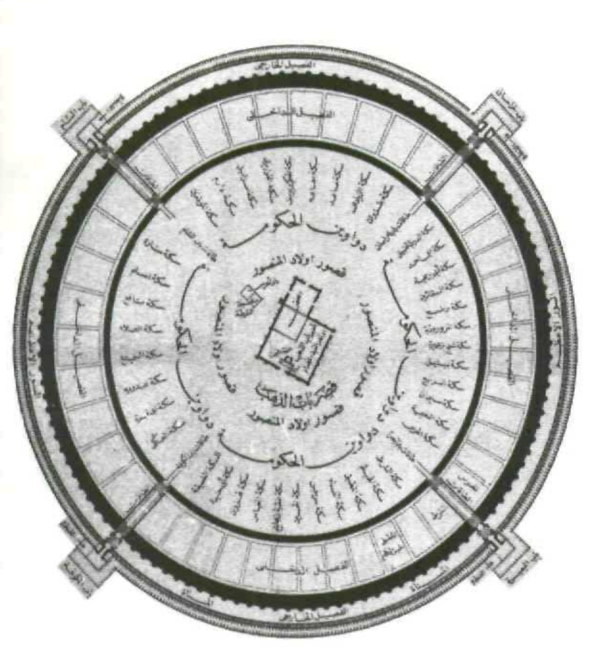
(١) من أنهار الجانب الغربي من بغداد .

وكان لمدينة المنصور المدورة أربعة أبواب ، كل بابين منهما متقابلان ، فكان باب الكوفة في الجنوب الغربي وباب البصرة في الجنوب الشرقي ، وباب الشام في الشمال الغربي وباب خراسان في الشمال الشرقي . وقد أحيط بالمدينة خندق عميق وواسع يصل اليه الماء من قناة متفرعة من نهر «كرخايا» . ويلي هذا الخندق من الداخل مسناة مشيدة بالآجر والجص ، كما كانت الحافة الخارجية للخندق مشيدة بالآجر والجص وبشكل مسناة . ويلي المسناة الداخلية وسورها الأول ، الفصيل الخارجي الذي يبلغ عرضه ٥٠ مترا ، والذي يقع بين السور الأول والسور الرئيسي ، وهذا الفصيل يقع حول السور الرئيسي ويخترق جميع أبواب المدينة ، وكان خاليا من أي بناء ، ثم يأتي السور الرئيسي للمدينة الذي يعتبر من أهم استحكامات المدينة الدفاعية وقد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من تفاصيل هذا السور . ومن هذه التفاصيل أن عرض أسسه كان ٩٠ ذراعا أو ٤٥ مترا ، ويتناقص السور من الخارج بأبراج ضخمة بلغ عددها ١١٣ برجا ، تعلوها شرفات مدورة . وقد جعل بين كل بابين ٢٨ برجا ، عدا الأبراج الكائنة بين باب البصرة وباب الكوفة والتي بلغ عددها ٢٩ برجا .

ويلي السور الرئيسي الفصيل الداخلي الذي قدر عرضه بـ ٣٠٠ ذراع أو ١٥٠ مترا . ويدور حوله وبموازاة السور الرئيسي طريق عرضه ٢٥ ذراعا أو ١٢,٥ مترا ، كما ويوجد طريق آخر يدور حول هذا الفصيل بموازاة السور الداخلي . وقد اختط هذا الفصيل بشبكة من الطرق والسكك والشوارع ، وضم دور المقربين للخليفة .

واما السور الداخلي الذي يلي هذا الفصيل فهو بمثابة حاجز بين الأسوار والاستحكامات الدفاعية والرحبة العظمى التي تعتبر مركز المدينة حيث شيد المنصور في وسطها جامعه الكبير والى جواره ابتنى قصره الذي عرف بـ «قصر باب الذهب» المشهور بقبته الخضراء . ثم شيدت حول هذه الرحبة قصور أولاد المنصور ويليها دواوين الحكومة ، ومن ثم قسمت المدينة الى قطائع شيدت فيها الدور والقصور والأسواق والجوامع والمعاهد وغيرها من الأبنية .

أما الجانب الشرقي من بغداد والذي يعرف اليوم بـ «الرصافة» ، فقد باشر المنصور ببنائه عندما استدعت الظروف السياسية اقامة معسكر لجنده يكون بعيدا عن مدينته ، واتخذ من هذا



رسم توضيحي لمدينة المنصور المدورة .

المعسكر مقرا لابنه وولي عهده المهدي ، فشيد الجامع الكبير والقصور ثم بدأ العمران فيه على غرار القسم الغربي ، وقامت في هذا القسم «الرصافة» ثلاث محلات : هي محلة «الرصافة» وكانت عند الجسر الكبير الذي عقده المنصور ليصل مدينته بالجانب الشرقي، والى الشمال منه كان قبر الامام أبي حنيفة . والمحلة الثانية هي «الشماسية» وتقع الى الشمال من محلة الرصافة . أما المحلة الثالثة فهي محلة «المخرم» ، وكانت الى الجنوب من محلة الرصافة . وقد أحيط هذا الجانب بسور نصف دائري يبدأ من ضفة النهر الى الشمال من محلة الشماسية وينتهي بالنهر أيضا عند محلة المخرم . وفي الأدوار العباسية المتعاقبة تغير الكثير من خطط بغداد وخاصة بعد انتقال مركز الخلافة الى «سامراء» والعودة ثانية الى بغداد حيث اهتم الخلفاء بتشييد القصور والأبنية في الجانب الشرقي ، بينما أهمل الجانب الغربي حتى ان العمران في الجانب الشرقي قد امتد الى الجنوب من محلة المخرم وأحيط بسور كبير نصف دائري ، الا أن معالمه قد أزيلت بسبب حصار ضرب حول المدينة . كما تعرضت المدينة للغرق مرات عديدة حتى كان عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) عندما شرع الخليفة «المستظهر بالله» ببناء السور وأكمله «المسترشد بالله» سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) ، ورمم أكثر من مرة . وكان في هذا السور أربعة أبواب ، هي : باب السلطان،

وموقعه عند باب المعظم الحـالي . وباب الظفرية أو الباب الوسطاني . وباب الطلسم أو باب الحلبة وباب « كلواذا » أو البصلية وموقعه بالقرب من الباب الشرقي اليوم .

وتشير الدراسات التاريخية الى أن الخلفاء العباسيين بعد وفاة المنصور أخذوا يتنافسون في في تشييد الأبنية الضخمة في مدينة بغداد بقسميها الغربي والشرقي حتى أصبحت هذه المدينة من أشهر الحواضر العربية وأجلها شأنا لما بلغته من العظمة والرفعة فصار يؤمها القصاد باعتبارهـا مركزا للخلافة الاسلامية في أزهى عهودها والتي امتدت رقعتها من الصين شرقا حتى جنوب فرنسا غربا ودانت لها جميع الأقاليم والبلدان باعتبارها مركزا للاشعاع الفكري وموئلا لطلاب العلـم والمعرفة في شتى بقاع العالم . الا أن أغلب معالم هذه المدينة وآثارها قد اندثر بسبب ما شهدته من نكبات الحروب والغزوات المتكررة ، وفي مقدمة تلك النكبات الغزو التتري بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، ثم الغزو اللنكي بقيادة تيمور لنك ٧٩٥هـ (١٣٩٢م) ، فدكت حصونها وأسوارها وهدمت مبانيها من قصور وجامعات ومساجد ومعالم أخرى ، وشهدت بغداد غزوات أخرى في العهود التي حكمت فيها من قبل الجلائريين والصفويين والعثمانيين ، اذ حاول الطامعون العبث بمقدرات المدينة وازالة أغلب معالمها .

على أن تلك الأقوام سرعـان ما تأثرت بروح الحضارة العربية الاسلامية فأخذت تحاول الحفاظ على البقية الباقية من تراث بغداد . وفيما يلي استعراض لأهم المعالم الأثرية في بغداد :

بـاب الشـلطان

وهو الأثر الوحيد الماثل من بقايا سور بغداد الشرقية ، وكان اسمه « باب الظفرية » ، وموقعه اليوم في محلة الشيخ عمر بالقرب من مرقد الشيخ عمر السهروردي . وبعد اندثار سور بغداد الكبير ، لم يبق من آثاره سوى هذا الباب الذي يدلنا على ضخامة ذلك السور ومتانته .

وهذا الباب مؤلف من برج عال محزم بنطاق من الكتابة بالخط النسخي وببعض الزخارف المنقوشة على الآجر ، ويقطعه جزء من الخندق المائي العميق المحاط بالسور ونشاهد اليوم جانبا من بقاياه التي تداركتها مديرية الآثار العامة وبادرت الى صيانتها والحفاظ عليها .

القصـر العبـّاسي

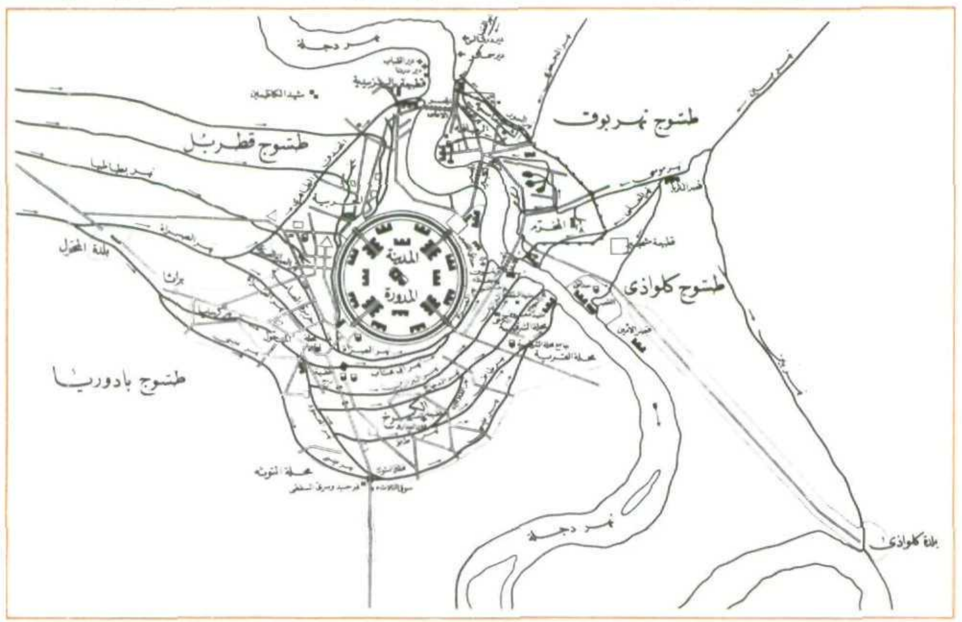
وهو من الأبنية العباسية الباقية اليوم في بغداد ، وهو بناء فريد في هندسته وتخطيط عمارته . ويقع هذا القصر في مركز مدينة بغداد على الضفة اليسرى لنهر دجلة الرصافة ، مما يرجح أنـه من الأبنية التي شيدت في العصر العباسي الثالث . وبالرغم من خلوه من الكتابات شأنه في ذلك شأن باقي القصور والعمائر العباسية ، فـان التنقيبات الآثارية التي أجرتها مديرية الآثار العامة منذ عام ١٩٣٤ ، كشفت عن مرافقة ووضعت تخطيطا كاملا لـه ، كما عثر على مجموعة من اللقى الأثرية . واستنادا الى الدراسات الآثارية والتاريخية لمدينة بغداد وخططها ومقارنتها بأسلوب عمارة هذا البناء استطعنا أن نحصر تاريخه في فترة ضيقة هي النصف الأول من القرن السابع الهجري ، وعلى الأرجح أن هذا البناء هو « المدرسة الشرابية » التي أسسها « شرف الدين اقبال الشرابي » مقدم الجيوش في زمن الخليفة المستنصر بالله والمعتصم بالله العباسيين . وتذكر المصادر التاريخية أن بناء المدرسة الشرابية قد أكمل في سنة ٦٢٨هـ ، ويتألف من طابقين يحيطان بصحن واسع مستطيل الشكل تبلغ مساحته ٤٣٠ مترا مربعا . ويتوسط الضلع الشرقي ايوان كبير يبلغ ارتفاعه حوالي ٩ أمتار ويعلو هذا الايوان افريز ارتفاعه ٣,٥ أمتار وتزين هـذه الواجهة زخارف آجرية دقيقة وبديعة منها ما يأخذ شكل النبات وأخرى هندسية . وعلى جانب الايوان عدد من القاعات في خلفها أروقة تدور حول القصر وفي الضلع الجنوبي ، توجد سبع قاعات في كل طابق ، ويتقدم قاعات الطابق الأول رواق طويل يستند على ثمانية أعمدة مبنية من الآجر . ويتألف سقف هذا الرواق من عقادة مكونة من مقرنصات آجرية . أما الضلع الشمالي فهو على غرار الضلع الجنوبي ، وهناك تناظر بالنسبة للضلعين الشرقي والغربي غير أنه كان في الضلع الغربي قبل انهياره ايوان مشابه للايوان الموجود في الضلع الشرقي .

مرقد الست زبيدة (السيدة زمرد خاتون)

ويقع بجوار مرقد الشيخ « معروف الكرخي » والمقبرة المعروفة بهذا الاسم اليوم وذلك في الجانب الغربي من بغداد . ويعرف اليوم خطأ بقبة الست زبيدة نسبة الى السيدة زبيدة أم الخليفة الأمين وزوج الخليفة هارون الرشيد ، اذ أن المصادر التاريخية تشير الى أنها دفنت في مقابر قريش ، أي في المنطقة التي يقوم فيها اليوم المشهد الكاظمي . أما هذا الضريح فقد شيدته السيدة « زمرد خاتون » زوجة الخليفة « المستضيء بالله » في عهد خلافة ولدها « الناصر لدين الله » وذلك قبل وفاتها سنة ٥٥٩هـ (١٢٠٢م) مع أبنية أخرى كانت ملحقة بمرقدها تشمل مكتبة جليلة عامرة ومدرسة للشافعية ورباطا للمتصوفة .

المدرسة المستنصرية

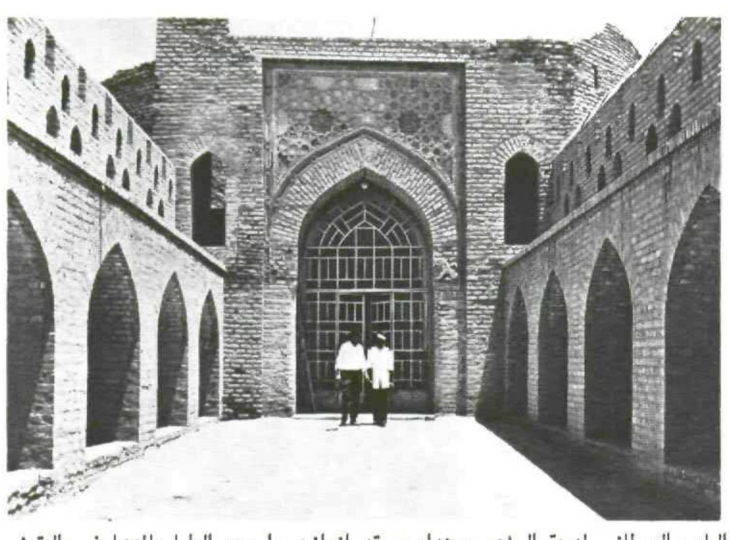
وهي تعتبر من أبرز الآثار العباسية وأجملها ، وتقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد عند رأس جسر الشهداء . وتمتد جبهتها على ضفة



رسم لمدينة بغداد في أول أدوارها العباسية كما وضعها « لي سترانج » مؤلف كتاب « بغداد في عهد الخلافة العباسية » .



جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد .



الباب الوسطاني لمدينة السلام « بغداد » وقد ازدانت واجهته العليا بالزخارف والنقوش.



منظر عام لباحة القصر العباسي « المدرسة الشرابية » في بغداد وقد غلب على بنائها طابع العمارة الاسلامي .

النهر وقد عرفت باسم مشيدها المستنصر بالله أبي جعفر المنصور ، الخليفة العباسي السابع والثلاثين (٦٢٣— ٦٤٠هـ)—(١٢٢٦—١٢٤٢م)، ولقد بدأ بانشائها سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م) واكتملت سنة ٦٣١هـ . وقد أنفق على بنائها حوالي سبعمائة ألف دينار ذهب ، وأوقف عليها نحو مليون دينار يدر عليها دخلا سنويا يقدر بسبعين ألف دينار .

وتعد هذه المدرسة أقدم جامعة في العالم من حيث تنوع مواضيع الدراسة فيها ، اذ كان يدرس فيها علوم القرآن والدين والفلسفة والعلوم التطبيقية كالطب والصيدلة والرياضيات والكيمياء والفلك وغيرها . وظلت المستنصرية عامرة وموئلا لطلاب المعرفة الذين كانوا يتوافدون اليها من مشارق الأرض ومغاربها .

وبناء هذه المدرسة مستطيل الشكل يوازي طوله مجرى نهر دجلة اذ يبلغ ١٠٤,٨ أمتار وعرضه من الجهة الشمالية ٤٤,٢٠ مترا ، ومن الجهة الجنوبية ٤٨,٨٠ مترا ، وبذلك تبلغ مساحتها ٤٨٣٦ مترا مربعا ، وكان لها مسناة لحمايتها من فيضانات نهر دجلة . ويتوسط البناء ساحة فسيحة مستطيلة الشكل يحيط بها طابقان بنائيان من جهاتها الأربع ، في كل طابق عدد من الغرف والقاعات . ويتوسط كل ضلع ايوان فخم يقدر ارتفاعه با رتفاع الطابقين. وتزين واجهات المدرسة وأبهاءها زخارف بديعة هندسية والرقش العربي . وكانت المستنصرية تشمل جميع المستلزمات الضرورية كالمسجد وحجر الدرس والسكن والطعام وخزانة كتب عامرة ومستشفى وصيدلية وساعة ومخازن وحمام وبستان . ومن ملحقات هذه المدرسة دار الحديث ، ودار القرآن .

جامع الشيخ عمر السهروردي

ويقوم في منطقة الشيخ عمر بجوار باب الظفرية « الباب الوسطاني » في الجانب الشرقي من بغداد ، وبالقرب منه مقبرة تعرف باسم مقبرة الشيخ عمر ، وهي المقبرة الوردية القديمة . ويعد هذا الجامع من أقدم جوامع بغداد ، وفيه قبر الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد البكري السهروردي مؤلف كتاب « عوارف المعارف » . وكان عالما وفقيه زمانه .

مئذنة سوق الغزل

وتقوم في قلب مدينة بغداد ، وهي مئذنة شاهقة وضخمة ، وتقع في شارع الجمهورية عند رأس سوق « الشورجة » . وكانت تابعة لجامع القصر أو مسجد دار الخلافة الذي شيده الخليفة « المكتفي بالله » العباسي سنة ٢٨٩—٢٩٥هـ ، وتتصف هذه المئذنة بخصائص فنية وعمارية خاصة ويعود زمن تشييدها الى عام ٦٧٨هـ (١٢٨٩م) ، ولها قاعدة اثنتا عشرية يبلغ محيطها ٢٠,٦٤ مترا ، ويقوم عليها بدن نصفه اثنا عشري والنصف الآخر أسطواني، ويبلغ ارتفاع المئذنة عن سطح الأرض حوالي ٣٣ مترا وترتكز على البدن الاثني عشري شرفة يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض ٧,٥٥ أمتار ، وارتفاع جدارها ١,٢٥ مترا ، ويضم مدخلين للطلوع أحدهما يقع في الجهة الشمالية الشرقية والثاني في الجهة الجنوبية الغربية . ويصل المدخلان الى سلمين يدوران في داخل البدن باتجاهين متعاكسين بحيث لا يستطيع الصاعد الى الأعلى مشاهدة النازل . والمئذنة مبنية



مرقد الشيخ عمر السهروردي في مدينة بغداد .



منظر عام لباحة المدرسة المستنصرية التي تعتبر من مفاخر العراق العلمية ..

من الآجر والجص وقد استعملت فيه مادة النورة أيضا . أما بدن المئذنة فمحلى بزخارف آجرية تعتبر آية في الفن والدقة .

المدرسة المرجانية

وتقوم بقاياها عند رأس سوق « الشورجة » في شارع الرشيد . وشيدها « أمين الدين مرجان » سنة ٧٥٨هـ ، وأوقف عليها أملاكا وضياعا واسعة وثبت كل ذلك في وقفيته على جدران مدرسته . وهذه المدرسة مربعة الشكل عدا زاويتها الشمالية التي جعلت مبتورة . ويتألف البناء من طابقين يصعد اليهما من أربعة سلالم تقوم في زواياها في الطابق الأرضي ، ويوجد فيه مصلى واسع وقد سقف بثلاث قباب أكبرها الوسطى ، وقد زينت الجدران بالزخارف الآجرية المتكونة من أشكال هندسية مختلفة الأنواع وأخرى نباتية ، وجميع الكتابات حفرت بين شبكات من الزخرفة النباتية والهندسية . وقد دفن « أمين الدين مرجان » في احدى حجرها الكائنة قبال المدخل .

خان مرجان

ويعتبر من المعالم الأثرية المهمة القائمة في مركز بغداد في منطقة تجارية مهمة ، وذلك في مدخل شارع « السموأل » عند رأس سوق « الشورجة » . وقد تم تشييده من قبل « أمين الدين مرجان » حاكم بغداد في العهد «الأيلخاني» وذلك سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩م) . وتتجلى أهمية هذا الخان في انفراده من حيث التصميم والدقة وفن العمارة حيث تفنن المعمار العراقي بجمع محتويات هذا البناء المؤلف من طابقين تعلوهما عقادة ضخمة واحدة ترتفع عن مستوى الأرض بحوالي ١٤ مترا وهذا السقف فريد في نوعه من حيث توالي العقادات المتنوعة في أشكالها وبأبعادها . وقد حقق هذا الأسلوب في بناء العقادة ايصال النور الى البهو الكبير بفتح النوافذ في العقادة من جميع الجهات .

وقد اتخذ « أمين الدين مرجان » من هذا الخان مركزا تجاريا ، وجعله من جملة أوقاف المدرسة المرجانية . وفي القرون المظلمة من تاريخ العراق ، تعرض هذا الخان الى الهدم نتيجة الاهمال وظل مهجورا حتى عام ١٩٣٥ عندما باشرت مديرية الآثار العامة بصيانته واتخذت منه متحفا عرضت فيه الآثار التي اكتشفتها في المواقع الأثرية العربية والاسلامية .

مرقد الإمامين الكاظمين - ومقابر قريش

ويقع في مدينة الكاظمية ، وهي مدينة قديمة وكانت هذه المنطقة قبل تشييد مدينة بغداد ، تعرف « بالشونيزي » ، وهي تسمية عربية تعني « الحبة السوداء » . ولما شيد المنصور مدينته ، جعل منها مقبرة لأسرته وأقربائه فسميت « مقبرة قريش » ، وكان أول من دفن فيها ابنه جعفر الأكبر سنة ١٥٢هـ . وممن دفن فيها أيضا السيدة زبيدة زوج الخليفة هرون الرشيد سنة ٢١٦هـ ، وابنها الخليفة الأمين . وفي سنة ١٨٣هـ (٧٩٩م) دفن فيها الامام موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد سنة ٢٢٠هـ (٨٣٠م) . وأصبحت تعرف بالكاظمية .

مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني

ويقع هذا المرقد في محلة باب الحلبة ، وهي من محلات بغداد القديمة وتعرف اليوم باسم محلة « باب الشيخ » نسبة الى الشيخ « عبد القادر الكيلاني » . وكان هذا المرقد في الأصل مدرسة شيدها « أبوسعيد المبارك بن علي المخرمي » الفقيه المتوفى سنة ٥١٣هـ (١١١٩م) ، وجددها ووسعها من بعده تلميذه الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي أقام فيها حلقات الدرس ، وظل عاكفا بها حتى وفاته سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) ودفن فيها .

مرقد الإمام الأعظم

هو مرقد وجامع الامام أبي حنيفة النعمان ابن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) وكان عالما وزاهدا وفقيه عصره ، وقد دفن في الموضع الذي عرف بمقابر الخيزران ، والذي صار مركزا لمحلة كبيرة محاطة بسور عرفت باسم محلة أبي حنيفة . وقد أزيلت معالم هذا السور وتوسعت تلك المحلة وأصبحت اليوم مدينة واسعة تعرف بقضاء الأعظمية ، وهي على بعد ٣ كيلومترات الى الشمال من مركز مدينة بغداد في الجانب الشرقي من نهر دجلة .

لقد مر المرقد والجامع بأدوار بنائية متعددة، ففي سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٦م) جدد بناءه شرف الملك أبو سعد الخوارزمي على عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي ، وأقام بجواره مدرسة للحنفية تعتبر من أولى مدارس العراق بمفهوم المدارس العلمية . ويتألف الجامع من المصلى وعدد من الأواوين والأروقة والمرافق المزدانة بالزخارف والنقوش النباتية والكتابات التي تتضمن الآيات القرآنية على الفسيفساء . وأسلوب عمارة هذا المشهد وجامعه يعد ضربا من ضروب فن العمارة العربية ، وللجامع قبة ومئذنة مزينة بزخارف من القاشاني ■

د - عيسى سلمان -- بغداد



نماذج لبعض المعروضات اليدوية التي يحويها المعرض السنوي الذي تقي



جامع الخلفاء في بغداد ، وهو من الآثار الإسلامية البارزة في العراق.
راجع مقال «بغداد مدينة السلام».